سراج الملوك

عالم الكتب

❖ الإدارة :

16 شارع جواد حسنى – القاهرة

تليفون : 3924626

فاكس : 002023939027

❖ المكتبة :

38 شارع عبد الخالق ثروت – القاهرة

تليفون : 3926401 - 3959534

ص . ب 66 محمد فريد

الرمز البريد : 11518

❖ الطبعة الأولى

رمضان 1426هـ – أكتوبر 2005 م

❖ رقم الإيداع 16910 / 2005

❖ الترقيم الدولى I.S.B.N

977-232-480-6

❖ الموقع على الإنترنت : WWW.alamalkotob.com

❖ البريد الالكترونى : info@alamalkotob.com

زبدة التراث

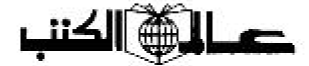
١٤

سراج الملوك

لمحمد بن الوليد الطرطوشى

إعداد وتقديم

الدكتور عبد الحميد حمدان




بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة زبدة التراث

تهدف هذه السلسلة في المقام الأول إلى إحياء تراثنا الحضاري الديني والعلمي بتبسيطه وجعله في متناول يد الجميع، وخاصة شباب جيلنا المعاصر، وتقوم هذه السلسلة على أساس انتقاء زبدة نصوص شوامخ المؤلفات والمصنفات لأعلام الفكر العربي والإسلامي وإخراجها في صورة موجزة لا تخل، بل وتفي بالغرض الذي وضعت من أجله دون الإثقال على القارئ الكريم بالتفاصيل المطولة أو الحواشي المسهبة. وقد جاء الاختيار غير عشوائي أو تعسفي، لكي يرضي جميع الأذواق والاتجاهات وليكون مرآة صادقة لتراث حضارتنا الزاهرة وصانعيها على مر العصور، وإتاحة الفرصة للرجوع إلى الأصل الذي لا تغني هذه الزبدة عنه بطبيعة الحال؛ فالغرض الأساسي لهذه السلسلة هو تحبيب التراث إلى النفوس وتقريبه إلى الأذهان.

وستعتمد هذه السلسلة على أمهات الكتب المحققة بواسطة محققين ثبت، وكذلك على بعض المخطوطات عند الاقتضاء.

الناشر

تقديم

وضع الطرطوشى، محمد بن الوليد، فى كتابه "سراج الملوك" قواعد ملزمة لتحديد السلطة وضبطها لكى تنهج فى تصرفاتها نهجا دستوريا مسئولا حتى لا تتهاوى وتسقط نتيجة تخليها عن التزاماتها الأساسية والقانونية المحددة. وأوضح فى مقدمة كتابه ذلك قائلا "أما بعد، فإننى نظرت فى سير الأمم الماضية والملوك الخالية وما وضعوه من السياسات فى تدبير الدول والتزموه من القوانين فى حفظ النحل، فوجدت ذلك على نوعين: أحكاما وسياسات".

وقد ولد مؤلفنا محمد بن الوليد الطرطوشى (نسبة إلى طرطوشة من مدن الأندلس) سنة ٤٥١ هـ تقريبا (١٠٥٨م). وصحب القاضى أبا الوليد الباجى بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه. وقرأ الفرائض عليه، والحساب والأدب على أبى محمد ابن حزم بمدينة اشبيلية. ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٨٦ هـ، ودخل بغداد والبصرة، وتفقه هناك عند أبى بكر الشاشى، وأبى محمد الجرجانى، وسمع بالبصرة من أبى على التسترى. وسكن الشام ودرّس بها، وسكن الإسكندرية بمصر، وتزوج بها من امرأة موسرة. وتوفى هناك

وصلى عليه ولده محمد، ودفن قبل الباب الأخضر سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م[١]. وكان الطرطوشي زاهدا عابدا متورعا، راضيا باليسير، قوالا للحق. وكان متدفق الأفكار والاجتهاد، عالما ببواطن الأمور وأحداثها حيث عاصر عدة تحولات تاريخية مهمة فى حياته هى: بداية عهد ملوك الطوائف فى الأندلس، وتراجع قوة ونفوذ دولة الفاطميين فى مصر، وابتداء الحملات الصليبية على شمال بلاد الشام وسواحلها[٢]. ولذا جاء كتابه "سراج الملوك" محكما فى غايته، غريبا فى فنونه وأسبابه، خفيف المحمل، كثير الفائدة، كما جاء فى مقدمته.

وقد نشر هذا الكتاب عدة مرات فى مصر. وله مؤلفات أخرى مخطوطة ومطبوعة[٣]

والله ولى التوفيق،

دكتور

عبد الحميد صالح حمدان

---

(١) انظر ترجمته فى: معجم الأدباء لياقوت ٣/ ٥٢٩، وابن خلكان، وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٣؛ ونفح الطيب للمقرى ١/ ٣٦٨، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٢١٨؛ واليافعى،مرآة الجنان ٣/ ٢٢٥، وشذرات الذهب للحنبلى ٤/ ٦٢، ومعجم المطبوعات لسركيس ٢/ ١٢٣٩؛ ومعجم المؤلفين لكحالة ١٢/ ٩٦، والأعلام للزركلى ٧/ ١٣٣.

(٢) انظر مقدمة تحقيق كتاب "سراج الملوك" لجعفر البياتى، ص ٣٧ وما بعدها

(٣) المرجع نفسه، ص ص ٢٠، ٢١.

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى لم يزل ولا يزل وهو الكبير المتعال خالق الآثار والأعيان ومكور النهار على الليل والليل على النهار، العالم بالخفيات وما تنطوى عليه الأرض والسماوات، سواء عنده الجهر والأسرار ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

خلق الخلق بقدرته وأحكمهم بعلمه وخصهم بمشيئته ودبرهم بمحكمته، لم يكن له فى خلقهم معين ولا فى تدبيرهم مشير وظهير وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن أو يستظهر، من يتقدس عن الذل بمن دخل تحت ذل التكوين، ثم كلفهم معرفته وجعل علم العالمين بعجزهم عن إدراكه إدراكا لهم ومعرفة العارفين بتقصيرهم عن شكره شكراً لهم، كما جعل إقرار المقرين بوقوف عقولهم عن الإحاطة بحقيقته إيمانا لهم.

لا يلزمه لم ولا يجاور أين، ولا تلاصقه حيث ولا تحله ما ولا تعده كم ولا تحصره متى ولا تحيط به كيف ولا تناله أى ولا يظله فوق

ولا تقله تحت ولا يقابله حد ولا تزاحمه عند ولا تأخذه خلف ولا يحده أمام ولم يظهره قبل ولا يغيبه بعد ولم تجمعه كل ولم توجده كان ولم تفقده ليس. وصفه لا صفة له وكونه لا أمد له ولا تخالطه الأشكال والصور ولا تغيره الأيام والغير ولا تجوز عليه المماسة والمقارنة وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة.

إن قلت لم كان فقد سبق العلل ذاته، من كان معلولا كان له غيره علة تساوقه فى الوجود وهو قبل جميع الأعيان بل علة لأفعاله، فقدرة الله فى الأشياء بلا مزاج وصنعه فيها بلا علاج وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه، فإن قلت أين هو فقد سبق المكان وجوده. فمن أين الأين، لم يفتقر وجوده إلى أين، هو بعد خلق المكان غنى بنفسه كما كان قبل خلق المكان وكيف يحل فيما منه بدأ أو يعود إلى ما هو أنشأ، فإن قلت ما هو فلا ماهية لوجوده وما موضوعة للسؤال عن الجنس والقديم تعالى لا جنس له لأن الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت الماهية، وإن قلت كم هو فهو أحد بذاته منفرد بصفاته. وإن قلت متى كان فقد سبق الوقت كونه، وإن قلت كيف هو فمن كيّف الكيف لا يقال له كيف ومن جازت عليه الكيفية جاز عليه التغير. وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه بل الزم الكل الحدث كما قال بعض الشياخ لأن القدم له، فالذى بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه والذى بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه والذى يؤلفه وقت تفرقه وقت والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه والذى يظفر به الوهم فالتصوير يرتقى إليه ومن آواه

محل ادركه أين ومن كان له جنس طالبه كيف. وجوده إثباته ومعرفته توحده وتوحيد تميزه من خلقه. ما تُصور فى الأوهام فهو بخلافه، لا تماقله العيون ولا تخالطه الظنون ولا تتصور الأوهام ولا تحيط به الأفهام ولا يقدره قدرة الأنام ولا يحويه مكان ولا يقارنه زمان ولا يحصره أمد ولا يشفعه والد ولا يجمعه عدد. قربه كرامته بعده إهانته. علوه من غير (توقل) ومجيئه من غير تنقل.

هو الأول والآخر والظاهر والباطن القريب البعيد الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأشهد له بالربوبية والوحدانية وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والنعوت الأوفى ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. وأؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون وأشهد أن محمداً عبده المصطفى وأمينه المرتضى أرسله إلى كافة الورى بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

أما بعد فإننى لما نظرت فى سير الأمم الماضية والملوك الخالية وما وضعوه من السياسات فى تدبير الدول والتزموه من القوانين فى حفظ النحل، فوجدت ذلك على نوعين أحكاماً وسياسات، فأما الأحكام المشتملة على ما اعتقدوه من الحلال والحرام والبيوع والأنكحة والطلاق والإجازات ونحوها والرسوم الموضوعة لها والحدود القائمة على من خالف شيئاً منها فأمراً اصطلحوا عليه بعقولهم ليس على شيء

منه برهان ولا أنزل الله به من سلطان ولا أخذوه عن نذير ولا اتبعوا فيه رسولاً، وإنما هى صادرة عن خزنة النيران وسدنة بيوت الأصنام وعبدة الأنداد والأوثان وليس يعجز أحد من خلق الله أن يضع من تلقاء نفسه أمثالها وأشباهها. وأما السياسات التي وضعوها فى التزام تلك الأحكام والذب عنها والحماية لها وتعظيم من عظمها وإهانة من استهان بها وخالفها، فقد ساروا فى ذلك بسيرة العدل وحسن السياسة وجمع القلوب عليها والتزام النصفة فيها بينهم على ما توجبه تلك الأحكام. وكذلك فى تدبير الحروب وأمن السبل وحفظ الأموال وصون الأعراض والحرم. كل ذلك قد ساروا فيه بسيرة جميلة لا ينافى العقول شئ منه، لو كانت الأصول صحيحة والقواعد واجبة.. فكانوا فى حسين سيرتهم بحفظ تلك الأصول الفاسدة كمن زخرف كنيفاً أو بنى على ميت قصراً منيفاً. شعر:

ولو لبس الحمار ثياب خز   لقال الناس يا لك من حمار

فجمعت محاسن ما انطوت عليه سيرهم خاصة من ملوك الطوائف وحكماء الدول، فوجدت ذلك فى ست من الأمم وهم: العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند. فأما ملوك الصين وحكماؤها فلم يبلغ إلى أرض العرب من سياستهم كبير شيء لبعد الشقة وطول المسافة، وأما من عدا هؤلاء من الأمم فلم يكونوا أهل حكم بارعة وقرايح نافذة وأذهان ثاقبة وإنما صدر عنهم الشيء اليسير من الحكمة. فنتظمت ما ألفيت فى كتبهم من الحكم البالغة والسير

المستحسنة والكلمة اللطيفة والطريقة المألوفة والتوقيع الجميل والأثر النبيل، إلى ما رويته وجمعته من سير الأنبياء صلى الله عليهم وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء، وما انطوى عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ومغاص الجواهر المكنونات، إن اختصر فلمحة أو إشارة خفيفة وإن أطال فألفاظ بارعة وآيات معجزة وهو الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة. ورتبته ترتيباً أنيقاً وترجمته تراجم بارعة حاوية لمقاصدها، ناطقة بحكمها ومضمونها، تلج الأذن من غير إذن وتتولج التامور من غير استيذان، ألفاظها قوالب لمعانيها، ليس ألفاظها إلى السمع بأسرع من معانيها إلى القلب.

فانتظم الكتاب بحمد الله وعونه، وأحكمته غاية فى بابه، غريبًا فى فنونه وأسبابه، خفيف المحمل كثير الفائدة، لم تسبق إلى مثله أقلام العلماء ولا جالت فى نظمه أفكار الفضلاء ولا حوته خزائن الملوك والرؤساء، فلا يسمع به ملك إلا استكتبه ولا وزير إلا استصحبه ولا رئيس إلا استحسنه، عصمة لمن عمل به من الملوك وأهل الرئاسة وجنة لمن تحصن به من أولى الأمرة والسياسة، وجمال لمن تحلى به من أهل الأدب والمحاضرة، وعنوان لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة. وسميته سراج الملوك، يستغنى الحكيم بدراسته عن مباحثة الحكماء والملك عن مشاورة الوزراء.

واعلموا وفقكم [الله] إن أحق من اهديت إليه الحكم وأوصلت إليه النصائح وحملت إليه العلوم، من أتاه الله سلطاناً فنفذ في الخلق حكمه وجاز عليهم قوله، ولما رأيت الأجل المأمون نظام الدين أبا عبد الله البطائحي أدام الله لإعزاز الدين نصره وأنفذ في العالمين، في الحق، أمره، وأوزع كافة الخليقة شكره وكفاهم فيه محذوره وضره، قد تفضل الله به على المسلمين فبسط فيهم يده ونشر في مصالح أحوالهم كلمته وعرف الخاص والعام يمنه وبركته، وتقلد أمر الرعية وسار فيهم على أحسن قضية، متحرياً للصواب راغباً للثواب طالباً سبل العدل ومناهج الإنصاف والفضل. رغبت أن أخصه بهذا الكتاب رجاء لطف الله تعالى في يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقي الدهر كما قيل:

الناس يهدون على قدرهم لكنني أهدي على قدري
يهدون الذي يفنى وأهدي الذي يبقى على الأيام والدهر

فإن العلم عصمة الملوك والأمراء ومعقل السلاطين والوزراء، لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله.

وهذه أبواب الكتاب وجملتها أربع وستون باباً:

الجزء الأول ويحتوى على اثنين وثلاثين باباً

الباب الأول: فى مواعظ الملوك.

الباب الثانى: فى مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين.

الباب الثالث: فيما جاء فى الولاة والقضاة وما فى ذلك من الغرر والخطر.

الباب الرابع: فى معرفة ملك سليمان بن داود عليه السلام ووجه طلبه للملك وسؤاله أن لا يؤتاه أحد بعده [ونفى البخل عنه].

الباب الخامس: فى فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا.

الباب السادس: فى أن السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح.

الباب السابع: فى بيان الحكمة فى كون السلطان فى الأرض.

الباب الثامن: فى منافع السلطان ومضاره.

الباب التاسع: فى [بيان] منزلة السلطان من الرعية.

الباب العاشر: فى بيان معرفة خصال ورد بها الشرع، فيها نظام الملك والدول.

الباب الحادى عشر: فى معرفة الخصال التى هى قواعد السلطان، ولا ثبات له دونها.

الباب الثانى عشر: فى [التنصيص على] الخصال التى زعم الملوك أنها أزالت دولهم وهدمت سلطانهم.

الجزء الثانى

١ ـ في مواعظ الملوك

لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا. أعلم أيها الرجل، وكلنا ذلك الرجل إن عقول الملوك وإن كانت كباراً إلا أنها مستغرقة بكثر الأشغال، فتستدعي من الموعظة ما يتولج على تلك الأفكار ويتغلغل في مكامن الأسرار، فترفع تلك الأستار وتفك تلك الأكنة والأقفال ويصقل ذلك الصدأ والران. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [١] فوصف الله تعالى جميع متاع الدنيا بأنها متاع قليل، وأنت تعلم أنك ما أوتيت من ذلك القليل إلا القليل ثم ذلك القليل ان تمتعت به ولم تعص الله فيه فهو لعب ولهو وزينة. قال الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [٢]، ثم قال: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [٣]، فلا تبع أيها العاقل لهواً قليلاً يفنى، بحياة الأبد حياة لا تفنى وشباب لا يبلى كما قال الفضيل [٤] رحمه الله تعالى: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى وكانت

---

(١) سورة النساء، الآية ٧٧.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٠.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

(٤) الفضيل بن عياض، الزاهد المشهور، المناوي: الكواكب الدرية بتحقيقنا ١/ ٢٦٧.

الآخرة خزفاً يبقى لوجب أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى.

(تأمل) بعقلك هل آتاك الله تعالى من الدنيا ما آتى سليمان بن داود عليه السلام حيث آتاه ملك جميع الدنيا والإنس والجن والطير والوحوش والريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ثم زاده الله تعالى ما هو خير منها فقال له تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [1] فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل قال عند ذلك: هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر، وهذا فصل الخطاب لمن تدبره أن يقول له ربه فى معرض المنة هذا عطاؤنا فامتنن أو أمسك بغير حساب، ثم خاف سليمان عليه السلام أن يكون استدرجاً من حيث لا يعلم.

(هذا) وقد قال لك ولسائر أهل الدنيا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [2].

(وقال) ﴿ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [3].

(تأمل) بعقلك إلى ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: "لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء".

---

(١) سورة ص، الآية ٣٩.
(٢) سورة الحجر، الآيتان ٩٢ و ٩٣.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

وألق سمعك إلى ما نزل به جبريل على محمد ﷺ فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لك عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به. (فانظر) إلى ما اشتملت عليه هذه الكلمات من صرعة الموت وفراق الأحبة والجزاء على الأعمال، فلو لم ينزل من السماء غيرها لكانت كافية.

(انظر) بفهمك إلى ما رواه الحسن[1] أن النبي ﷺ مر بمنزل قوم قد ارتحلوا عنه وإذا طلى[2] مطروح فقال: أترون هذا هان على أهله، فقالوا من هوانه عليهم ألقوه، قال: فوالذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذا على أهله. فجعل الدنيا أهون على الله من الجيفة المطروحة. وقال أبو هريرة قال لي النبي ﷺ ألا أريك الدنيا جمعاً بما فيها قلت: بلى، وقال: فأخذ بيدي وأتى بي إلى واد من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم، ثم قال: يا أبا هريرة: هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم ثم هي اليوم تساقط جلداً بلا عظم ثم هي صائرة رماداً رمدداً، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم أكسبوها من حيث اكتسبوها وقذفوها في بطونهم، فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم ولباسهم ثم أصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك. فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا. (وقال) ابن عمر: أخذ رسول

---

(١) أي الحسن البصري.
(٢) ولد الظبية.

الله ﷺ ببعض جسدي فقال: يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وأعدد نفسك في الموتى.

أيها الرجل إن كنت لا تدري متى يفاجؤك الأجل فلا تغتر بطول الأمل فإنه يقسي القلب ويفسد العمل، وقد عيّر الله أقواماً مدّ لهم في الأجل فقست منهم القلوب وطال منهم الأمل، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[1].

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

(يا أيها الرجل) ألق إليّ سمعك وأعرني لبك:

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن

بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

أين آدم أبو الأولين والآخرين؟ أين نوح شيخ المرسلين؟ أين ادريس رفيع رب العالمين؟ أين إبراهيم خليل الرحمن الرحيم؟ أين موسى الكليم من بين سائر النبيين والمرسلين؟ أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين وإمام السائحين؟ أين محمد خاتم النبيين؟ أين أصحابه الأبرار المنتخبون؟ أين الأمم الماضية؟ أين الملوك السالفة أين

---

(١) سورة الحديد، الآية ١٦.

القرون الخالية؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان؟ أين الذين اعتزوا بالأجناد والسلطان؟ أين أصحاب السطوة والولايات؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات؟أين الذين قادوا الجيوش والعساكر؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر؟ أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف؟ أين الذين اقتحموا المخاطر والمخاوف؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب؟ أين الذين تمتعوا في اللذات والمآرب؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً وعتياً؟ أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشياً؟ أين الذين استلانوا الملابس أثاثاً ورئياً؟:﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا** ﴾ [1].أين الذين ملأوا ما بين الخافقين عزاً؟ أين الذين فرشوا القصور خزاً وقزاً؟ أين الذين تضعضعت الأرض لهم هيبة وهزاً؟ أين الذين استذلوا العباد قهراً وتزاً؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟ أفناهم والله مفنى الأمم وأبادهم مبيد الرمم وأخرجهم من سعة القصور وأسكنهم في ضنك القبور تحت الجنادل والصخور فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، فعاث الدود في أجسامهم واتخذ مقيلاً في أبدانهم فسالت العيون على الخدود وامتلأت تلك الأفواه بالدود وتساقطت الأعضاء وتمزقت الجلود وتناثرت اللحوم وتقطعت البطون فلم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما كسبوا.

أسلمك الأحبة والأولياء وهجرك الأخوان والأصفياء ونسيك القرباء والبعداء فأنسيت، ولو نطقت لأنشدت قولنا عن سكان الثرى

---

(١) سورة مريم، الآية ٧٤.

ورهائن الترب والبلى، (شعر):

مقيم بالحجون رهين رمس وأهلي رائحون بكل واد

كأني لم أكن لهم حبيباً ولا كانوا الأحبة في السواد

فعوجوا بالسلام فإن أبيتم فأرموا بالسلام على بعاد

فإن طال المدى وصفا خليلاً سوانا فاذكروا صفو الوداد

وذاك أقل ما لك من حبيب وآخره إلى يوم التناد

فلو أنا بموقفكم وقفنا سبقنا الترب من مهج الفؤاد

(وقال) مكرم بن يوسف العابد: أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن وقف على المدائن والحصون وأبلغهم عني حرفين لا يأكلوا إلا طيباً ولا يتكلموا إلا بالحق. (ولما) دخل يزيد الرقاشي على عمر ابن عبد العزيز قال: عظني يا يزيد فقال: يا أمير المؤمنين اعلم ما أنك أول خليفة يموت فبكى عمر وقال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم إلا أب ميت، فبكى وقال: زدني يا يزيد فقال: ياأمير المؤمنين ليس بينك وبين الموت موعد فبكى وقال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين ليس بين الجنة والنار منزل فسقط مغشياً عليه.

(يا أيها الرجل): لا تغفل عن ذكر ما تتيقنه من وجوب الفناء وتقضي المسار وذهاب اللذات وانقضاء الشهوات وبقاء التبعات وانقلابها حسرات وأن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، ولها

يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له، من صح فيها سقم ومن سلم فيها برم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن، حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب، من ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر إليها أعمته ومن تبصر بها بصرته، لا خيرها يدوم ولا سرورها يبقى ولا فيها لمخلوق بقاء.

(يا أيها الرجل): لا تُخدعن كمن خدع من قبلك، فإن الذى أصبحت فيه من النعم إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يدك مثل ما صار إليك فلو بقيت الدنيا للعالم لم تصر للجاهل، ولو بقيت للأول لم تنتقل للآخر.

(يا أيها الرجل):لو كانت الدنيا كلها ذهباً وفضة ثم سلمت عليك بالخلافة وألقت إليك مقاليدها وأفلاذ كبدها ثم كانت طريدة للموت ما كان ينبغى لك أن تتهنأ بعيش، لا فخر فيها يزول ولا غنى فيما يفنى وهل الدنيا إلا كما قال الأول قدر يغلى وكنيف يملأ:

وكما قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم ... فتمايلت عجباً ولم تبدى

حتى مررت على الكنيف فقال لى ... أموالهم ونوالهم عندى

ولقد أصاب ابن السماك[1] لما قال له الرشيد[2]: يا ابن السماك

---

(١) أبو العباس محمد بن صبيح المعروف بابن السماك.

(٢) الخليفة هارون الرشيد.

وبيده شربة من ماء فقال: يا أمير المؤمنين أرأيت لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك، قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين أرأيت لو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك، قال: نعم، قال: فلا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة.

(يا أيها الشاب): لا تغتر بشبابك فإن أكثر من يموت الشباب والدليل عليه أن أقل الناس الشيوخ.

(يا أيها الشاب): كم من جمل في التنور وأبوه يرعى، وكم من طفل في التراب وجده يحيا.

(وقال) علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأسقف قد أسلم: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين إن كان الله عليك فمن ترجو؟ قال: أحسنت فزدني، قال: إن كان الله معك فمن تخاف، قال: أحسنت فزدني ، قال: أحسب الناس أن الله قد غفر للمذنبين أليس قد فاتهم ثواب المحسنين، قال: حسبي حسبي وبكى عليّ أربعين صباحاً. وقال الحسن: قدم صعصعة، يعني عم الفرزدق، على النبي فسمعه يقرأ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [1]، فقال: حسبي حسبي لا أبالي أن لا أسمع آية غيرها.

(وقال) سليمان بن عبد الملك لحميد الطويل: عظني فقال: إن كنت عصيت الله وظننت أنه يراك فلقد أجترأت على رب عظيم وان كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت برب عظيم.

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

(وكتب) علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى سلمان: إنما مثل الدنيا كمثل الحية لين لمسها ويقتل سمها فاعرض عنها وعن ما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها احذر ما تكره منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه.

وقال أبو العتاهية:

هي الدار دار الأذى والقذى ... ودار الغرور ودار الغير

فلو نلتها بحذافيرها ... لمت ولم تقض منها الوطر

أيا من يؤمل طول الحياة ... وطول الحياة عليه خطر

إذا ما كبرت وبان الشباب ... فلا خير في العيش بعد الكبر

(ولما) بلغ مردك من الدنيا أفضل ما سمت إليه نفسه ورقت إليه همته رفضها ونبذها، وقال هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملك لولا أنه هلك وغنى لولا أنه فناء وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود وغناء لولا أنه اتضاع وعلا لولا أنه بلا وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغد.

(يا أيها الرجل): لا تكن كالمنخل يرسل أطيب ما فيه ويمسك الحثالة (وأعلم) أن من قسى قلبه لا يقبل الحق وإن كثرت دلائله، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ

﴿ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[1]، وذلك أن كثرة الذنوب مانعة من قبول الحق للقلوب وولوج المواعظ فيها. قال الله تعالى ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2] أي غطاه وغشيها فلا تقبل خيراً ولا تصلح لموعظة.

جاء في السير إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ثم إن أذنب نكتت نكتة سوداء حتى يسود القلب.

وقال حذيفة: القلب كالكف فإذا أذنب العبد انقبض وقبض إصبعًا ثم إذا أذنب انقبض إصبعاً آخر ثم كذلك ثم الثالث والرابع حتى يقبض الكف كله ثم يطبع الله عليه وذلك هو الران.

وقال بكر بن عبد الله إذا أذنب العبد صار في قلبه كوخز الإبرة حتى يعود القلب كالمنخل.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب.

وقال ابن شبرمة[3]: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرماً بحب الدنيا. لم تنفعه الموعظة. وفيه قيل شعر:

إذا قسى القلب لم تنفعه موعظة كالأرض ان سبخت لم ينفع المطر

ويروى أن أبا العتاهية مر بدكان ورّاق فإذا كتاب فيه بيت من الشعر:

---

(1) سورة البقرة، الآيتان ٧٣ و ٧٤.
(2) سورة المطففين، الآية ١٤.
(3) أبو شبرمة الضبي الكوفي الفقيه، المتوفى سنة ١٤٤ هـ.

لــن تــرجع الأنفــس عــن غـيها مــا لم يكــن مــنها لهــا رادع

فقال: لمن هذا، قيل لأبي نواس، قال: وددت أنه لي بنصف شعري.

قال الأصمعي: إن النعمان بن امرئ القيس الأكبر الذى بنى الخورنق، اشرف على الخورنق يوماً فأعجبه ما أوتى من الملك والسعة ونفوذ الأمر وإقبال الوجوه نحوه، فقال لأصحابه: هل أوتى أحد مثل ما أوتيت؛ فقال له حكيم من حكماء أصحابه: هذا الذى أوتيت شيء لم يزل ولا يزال أم شيء كان لمن قبلك زال عنه وصار إليك؟ قال: بل شئ كان لمن قبلي زال عنه وصار إلىّ وسيزول عني، قال: فسررت بشيء تذهب عنك لذته وتبقى تبعته، قال: فأين المهرب، قال: إما أن تقيم وتعمل بطاعة ربك أو تلبس إمساحاً وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك. قال: فإذا فعلت ذلك فمالى، قال: حياة لا تموت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى. قال: فأى خير فيما يفنى والله لأطلبن عيشاً لا يزول أبدًا، فانخلع من ملكه ولبس الأمساح وسار في الأرض وتبعه الحكيم وجعلا يسبحان ويعبدان ربهما حتى ماتا.

وفيه يقول عدى بن زيد:

تبين لرب الخورنق إذ أصبح يوماً وللهدى تذكير

سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير

فارعوى قلبه وقال فما غبطة حي إلى الممات يصير

اين كسرى كسرى الملوك أنو شروان أم أين قبله سابور

وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور

لم يهبه ريب المنون فباد والملك عنه فبابه مهجور

وفيهم يقول الأسود بن يعفر[١]:

ولقد علمت سوى الذى نبأتنى … أن السبيل سبيل ذى الأعواد

ماذا أؤمل بعد آل محرق … تركوا منازلهم وبعد إياد

أرض الخورنق والسرير وبارق … والقصر ذى الشرفات من سنداد

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم … ماء الفرات يجئ من اطواد

أرض تخيرها لطيب مقيلها … كعب بن مامة وابن أم داود

جرت الرياح على محل ديارهم … فكأنما كانوا على ميعاد

فإذا النعيم وكل ما يلهى به … يوماً يصير إلى بلى ونفاد

وقال وهب بن منبه: أصيب على غمدان وهو قصر سيف بن ذى يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة، مكتوباً بالقلم المسند[٢] فترجم بالعربية فإذا هى أبيات شعر جليلة وموعظة عظيمة:

باتوا على قلل الجبال تحرسهم … غلب الرجال فلم تنفعهم القلل

واستنزلوا من أعالى عز معقلهم … فاسكنوا حفراً يا بئس ما نزلوا

---

(١) من شعراء الجاهلية المعدين.

(٢) أى الخط الحميرى.

ناداهم صارخ من بعدما دفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت محجبة ... من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود تقتتل

قد طال ما أكلوا يوماً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

قرئ على القاضي أبي الوليد وأنا أسمع، لبعض الشعراء الحكماء:

ويحك يا سمـ مما شاني ... أطللني والله ما ساني

الموت حق فاعلمي نازل ... فيسري لحدي وأكفاني

قد كنت ذا مال فلا والذي ... أعطاني العيش وأغناني

ما قرت العين به ساعة ... إلا تذكرت فأشجاني

علمي بأني صاير للبلى ... وفاقد أهلي وجيراني

وتارك مالي على حاله ... نهباً لشيطان بن شيطان

لامرأة ابني أو لزوج ابنتي ... يا لك من غبن وخسراني

يسعد فيه مالي وأشقى به ... قوم ذو غل وشنآني

إن أحسنوا كان لهم أجرة ... وخف من ذلك ميزاني

ومن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وفناءها وتقضيها وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور[1] من أبناء ملوك خراسان من

(١) أبو إسحاق العجلي الواعظ، أحد أعلام الصوفية، توفي سنة ١٦١ هـ.

كورة بلخ، ولما زهد في الدنيا زهد عن ثمانين سريراً. قال إبراهيم ابن بشار سألت إبراهيم بن أدهم: كيف كان بدؤ أمرك حتى صرت إلى هذا؟ قال: غير هذا أولى بك، قلت: يرحمك الله لعل الله ينفعني به.

٢ ـ فى مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وعليه شملة ومدرعة صوف فلما مثل بين يديه اقتحمته عينه فأقبل عليه وقال: مه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الدخول فالمكثر فيها قد أطرق والمقل قد أملق وبلغ به المخنق، فإن رأى أمير المؤمنين المحنق أن ينعش الفقير ويجبر الكسير ويسهل العسير ويصفح عن الدخول فيداوى المحول ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ويزيل اللأواء ألا وأن السيد من يعم ولا يخص ويدعو الجفلا ولا يدعو النقرى، إن أُحسن إليه شكر وإن أسيء إليه غفر، فقال معاوية ها هنا يا أبا بحر[1] ثم قرأ ولتعرفنهم فى لحن القول.

وقال سفيان الثورى[2] لما حج المهدى قال: لابد لى من سفيان الثورى فوضعوا لى الرصد حول البيت فأخذونى فى الليل، فلما مثلت بين يديه أدنانى ثم قال: لأى شيء لا تأتينا فنستشيرك فى أمورنا فما

(١) الضحاك أبو محمد التميمى السعدى، توفى فى الكوفة سنة ٦٧.
(٢) المتوفى سنة ١٦١ هـ.

أمرتنا من شيء صرنا إليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه. فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا، قال: لا أدري، لي أمناء ووكلاء، قلت: فما عذرك غداً إذا وقفت غداً بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك، لكن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما حج قال لغلامه: كم أنفقنا في سفرتنا هذه قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً قال: ويحك أجحفنا ببيت مال المسلمين.

وقال الزهري: ما سمعت أحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات فيهن إصلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك، قال: ما هن؟ قال لا تعد أحداً عدة وأنت لا تريد إنجازها فلا يغرنك مرتقى سهل إذا كان المنحدر وعراً واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب وللدهر ثارات وكن على حذر.

ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد، قال له: عظني، قال: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه لم يرض بخلافته في بلاده غيرك فلا ترض من نفسك إلا بما رضي الله عنك فإنك ابن عم رسول الله ﷺ وأولى الناس بذلك، يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقاً أن يعتق نفسه، يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها أذاقته الأخرى مرارتها لتجافيه عنها، يا أمير المؤمنين أنشدك الله أن تقدم على جنة عرضها السموات والأرض وقد

دعيت إليها وليس لك فيها نصيب، يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك وأنك لا تقدم إلا على نادم مشغول ولا تخلف إلا نادماً مغروراً وإننا وإياك فى دار سفر وجيران ظعن.

ولما حج سليمان بن عبد الملك استحضر أبا حازم فقال له: تكلم يا أبا حازم، قال: بم أتكلم؟ قال: فى الخروج من هذا الأمر، قال: يسير إن أنت فعلته، قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا بحلها ولا تضعها إلا فى أهلها، قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: من قلده الله من الأمر ما قلدك. قال: عظنى يا أبا حازم، قال: يا أمير المؤمنين ان هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ثم قال: يا أمير المؤمنين نزه ربك فى عظمته عن أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك، يا أمير المؤمنين إنما أنت سوق فما نفق فيك حمل إليك من خير أو شر فاختر لنفسك أيهما شئت. قال: فما لك لا تأتنا، قال: وما أصنع بإتيانك، إن أدنيتنى، فتنتنى وإن أقصيتنى حزنتنى وليس عندى ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له، قال: فارفع إلى حوائجك، قال: قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها فما أعطانى منها قبلت وما منعنى منها رضيت، يقول الله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [1] فمن ذا الذى يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم له أو يزيد فى قليل ما قسم له. قال: فبكى سليمان بكاءً شديداً، فقال: رجل من جلسائه أسأت إلى أمير

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

المؤمنين، فقال أبو حازم: اسكت فإن الله أخذ ميثاق العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه، ثم خرج من عنده فلما صار إلى منزله بعث إليه بمال فرده وقال للرسول: قل له يا أمير المؤمنين والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي.

وقال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد، فبينما أنا نائم إذ سمعت قرع الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعاً فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك فقال: ويحك قد جاء في نفسي شيء أنظر لي رجلاً أسأله، قلت له: ها هنا سفيان بن عيينة فقال: أمض بنا إليه، فأتيناه فقرعنا عليه الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال: خذ ما جئتنا له، فحادثه ساعة ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم، قال: يا عباس أقض دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً فانظر لي رجلاً أسأله قلت: ها هنا عبد الرزاق بن همام قال: أمض بنا إليه نسأله فأتيناه فقرعنا عليه الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال: خذ ما جئتنا له، فحادثه ساعة ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم، قال: يا عباس أقض دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً فانظر لي رجلاً أسأله قلت: ها هنا الفضيل بن عياض، قال: أمض بنا إليه فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آيات من كتاب الله تعالى يرددها، فقرعت الباب فقال: من هذا؟

فقلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لى ولأمير المؤمنين، قلت: سبحان الله: أما عليك طاعته أو ليس روى عن النبى ﷺ أنه قال: ليس لمؤمن أن يذل نفسه، ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة. فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي، فقال: أواه من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله، فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب نقى، فقال: خذ م جئتن له، قال: وفيم جئت: خطئت على نفسك وجميع من معك خطئوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك سقطاً من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبًّا لك أشدهم هرباً منك، ثم قال:إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم ابن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة فقال لهم: إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علىّ فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت، وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك، قال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم متى شئت مت وإنى لأقول لك هذا وأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام.

فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا، فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: أرفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا، ثم أفاق فقال: زدني.

فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكى إليه فكتب إليه عمر: يا أخي أذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبد فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً أو يقظاناً وإياك أن تزل قدمك عن هذه السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك. فقال له: خلعت قلبي بكتابك لا وليت لك ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى. فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: زدني.

فقال: يا أمير المؤمنين أن العباس عم النبي ﷺ جاءه فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة فقال له ﷺ: يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل. فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: زدني يرحمك الله.

فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فإن النبي ﷺ يقول من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة. فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: عليك

دين؟ قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم يلهمني حجتي، قال: أنا أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [1]. فقال له: هذه ألف دينار خذها فانفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا أدلك على سبيل النجاة وتكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك، ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده. فقال لي هارون: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا. هذا سيد المسلمين اليوم.

(وروى) أن امرأة من نسائه دخلت عليه فقالت يا هذا أما ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال لفرجت به عنا، فقال: إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، موتوا يا أهلي جوعاً ولا تذبحوا فضيلاً، فلما سمع الرشيد ذلك قال: أدخل فعسى أن يقبل المال، قال فدخلنا عليه فلما علم بنا الفضيل خرج وجلس على التراب على السطح فجلس هارون إلى جانبه فجعل يكلمه وهو لا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد أذيت الشيخ هذه الليلة فانصرف يرحمك الله فانصرفنا.

---

(١) سورة الذاريات، الآيات ٥٦، ٥٧، ٥٨.

ووعظ شبيب بن شبة المنصور فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل فوقك أحداً فلا تجعل فوق شكرك شكراً.

(ودخل) عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ ﴿ وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾[2] حتى بلغ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[3] لمن فعل فعالهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن بأبوابك نارا تأجج لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسئولين عما اجترحت. فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم إلا العدل لتقرب به إليك من لا يريده، فقال له سليمان بن مجالد اسكت فقد غممت أمير المؤمنين، فقال عمرو: ويحك يا ابن مجالد أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه. اتق الله يا أمير المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سلماً إلى شهواتهم فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب وأن هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئاً.

وقال الأوزاعي للمنصور: في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل فقال: يا محمد ما هذه الجريدة بيدك أقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً. فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أبشارهم ونهب

---

(٢) سورة الفجر، الآيتان ١، ٢.

(٣) سورة الفجر، الآية ١٤.

أموالهم، ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً عن غير عمد. فقال له جبريل عليه السلام: إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قلوب رعيتك. يا أمير المؤمنين لو أن ثوبا من النار صب على ما فى الأرض لأحرقه فكيف بمن يتقمصه ولو أن ذنوباً من النار صب على ما فى الأرض لأحرقه فكيف بمن يتجرعه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه.

(ودخل) بعض العقلاء على سلطان فقال له: إن أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه وأولاهم بالإنصاف من بسطت يداه بالقدرة فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق.

(وروى) أن أعرابياً قام بين يدى هشام بن عبد الملك فقال له: أيها الأمير أتت على الناس سنون ثلاثة: أما الأولى فأكلت اللحم وأما الثانية فأذابت الشحم وأما الثالثة فهاضت العظم وعندك فضول أموال فإن كانت لله فاقسمها بين عباد الله وإن كانت لهم فلم تحضرها عليهم وإن كانت لكم فتصدقوا إن الله يجزى المتصدقين، فأمر هشام فقسم بين الناس وأمر للأعرابى بمال، فقال: أكل المسلمين له مثل هذا المال، قال: لا، يقوم بذلك بيت المال، قال: لا حاجة لى فيما يبعث لائمة الناس على أمير المؤمنين.

(وقال) رجل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين أذكر بمقامي هذا مقاماً لا يشغل الله عنك كثرة من تخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب، فبكى عمر بكاءً شديداً ثم استرده الكلام فجعل يردده وعمر يبكي وينتحب ثم قال: حاجتك؟ فقال: عاملك بأذربيجان أخذ مني اثني عشر ألف درهم، فقال: اكتبوها له حتى ترد عليه.

(ولما دخل) زياد على عمر بن عبد العزيز، قال: يا زياد ألا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ، فقال زياد: يا أمير المؤمنين والله لو أن كل شعرة منك قطعت ما بلغت كنه ما أنت فيه، فاعمل لنفسك في الخروج مما أنت فيه، يا أمير المؤمنين كيف حال رجل له خصم ألدّ، قال: سيء الحالة، قال: فإن كان له خصمان ألدّان، قال: أسوأ الحالة، قال: فإن كانوا ثلاثة، قال: لا يهنيه عيش، قال: فوالله ما من أحد من أمة محمد ﷺ إلا وهو خصمك، فبكى حتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك.

(وقال) محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز، يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق فمنها خرج الناس بما ربحوا فيها لآخرتهم وخرجوا بما يضرهم، فكم من قوم غرّهم مثل الذي أصبحت فيه حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرملين لم يأخذوا من الدنيا للآخرة، فأخذ مالهم من لا يحمدهم وصاروا إلى من لا يعذرهم (فانظر) إلى

الذى تحب أن يكون معك فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذى تكره أن يكون معك إذا قدمت فابتغ به البدل حيث يجوز البدل ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عنك، يا أمير المؤمنين افتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم.

وحضر رجل بين يدى بعض الملوك فأغلظ له السلطان، فقال الرجل إنما أنت كالسماء إذا أرعدت وأبرقت فقد قرب خيرها، فسكن ما به وأحسن إليه.

ولما احتاج المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس أن يأخذ أرضاً محبسة ويعاوض عنها خيراً منها استحضر الفقهاء فى قصره، فأفتوا بأنه لا يجوز فغضب السلطان وأرسل إليهم رجلاً من الوزراء مشهوراً بالحدة والعجلة، فقال لهم: يقول لكم أمير المؤمنين يا مشيخة السوء يا مستحلى أموال الناس يا أكلة أموال اليتامى ظلماً يا شهداء الزور يا آخذى الرشا وملقنى الخصوم وملحقى الشرور وملبسى الأمور وملتمسى الروايات لذى أتباع الشهوات تباً لكم ولآرائكم، فهو أعزه الله واقف على فسوقكم قديماً وخونكم أماناتكم، مغض عنه صابر عليه ثم احتاج إلى دقة نظركم فى حاجة إلى مرة واحدة فى دهر، فلم تسعفوا إرادته، ما كان كذا ظنه فيكم. والله ليعارضنكم وليكشفن ستوركم وليناصحن الإسلام فيكم. وأفحش عليهم بهذا وغيره، فأجابه شيخ منهم ضعيف المنة فقال: نتوب إلى الله مما قاله أمير المؤمنين

ونسأله الإقالة. فرد عليه زعيم القوم محمد بن إبراهيم بن جنونة وكان صارماً فقال للمتكلم : مم نتوب يا شيخ ونحن براء من مثابك. ثم أقبل على الوزير فقال: يا وزير بئس المبلغ أنت وكذا نسبته إلينا عن أمير المؤمنين فهى صفتكم معاشر خدمه، أنتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل وتستحلون ظلمهم بالإخافة وتحيفون معايشهم بالوشا والمصانعة وتبغون بالأرض بغير الحق، فأما نحن فليسنا هذه صفاتنا ولا كرامة، ولا يقولها لنا إلا متهم في الديانة، فنحن أعلام الهدى وسُرج الظلمة، بنا يتحصن الإسلام ويفرق بين الحلال والحرام وتنفذ الأحكام وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق وتحقن الدماء وتستحل الفروج، فهلا إذا عتب سيدنا أمير المؤمنين علينا بشيء لا ذنب فيه لنا وقال بالغيظ بعض ما قاله: تأنيت لإبلاغنا وسألته بأهون من إفحاشك وعرضت لنا بإنكاره ففهمنا منك وأجبنا عنه بما يصلح الجواب به فكنت تزين على السلطان ولا تفشى سره وتستحدنا بما استقبلتنا به، فنحن نعلم أن أمير المؤمنين لا يتمادى على هذا الرأى فينا ولا يعتقد في صفاتنا وأنه سيراجع بصيرته في إيثارنا وتعزيزنا، فلو كنا عنده في هذه الحالة التي وصفتها عنا والعياذ بالله من ذلك لبطل عليه كل ما صنعه وعقده من أول خلافته إلى هذا الوقت، فما نثبت له كتاباً في حرب ولا سلم ولا شراء ولا بيع ولا صداقة ولا حبس ولا هبة ولا عتق إلى غير ذلك إلا شهادتنا، هذا ما عندنا والسلام. ثم قاموا ينصرفون، فلم يكادوا يبلغوا باب القصر إلا والرسل تناديهم،

فأدخلوا إلى القصر فتلقاهم الوزير بالأعظام، ورفعوا منازلهم واعتذروا مما كان من صاحبهم، وقال لهم: أمير المؤمنين يعتذر إليكم من فرط موجدته ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزعته التى حملته على الجفاء عليكم، ويعلمكم أنه نادم على ما كان منه وهو مستبصر فى تعطيفكم وقضاء حقوقكم وقد أمر لكل رجل منكم بما ترون من صلته وكسوته علامة لرضاه عنكم، فدعوا له ما أمر لهم وانصرفوا غالبين لم يمسسهم سوء.

ولما نظر مالك بن دينار على المهلب يجر أذياله ويتبختر فى ثياب خيلائه ناداه أن أرفع من ثيابك، قال المهلب: أو ما تعرفنى، قال مالك: بلى إننى أعرفك أو لك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل عذرة.

ويروى أن رجلاً قال لعبد الله العمرى: هذا هارون الرشيد فى الطواف قد أخلى له المسعى، فقال له: لا جزاك الله عنى خيراً، كلفتنى أمراً كنت عنه غنياً، ثم جاء إليه فقال له: يا هارون، فلما نظر إليه قال: لبيك يا عم، قال: كم ترى هنا من خلق الله؟، قال لا يحصيهم إلا الله، فقال: أعلم أيها الرجل أن كل واحد يسأل عن خاصة نفسه وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم فانظر كيف تكون، قال: فبكى هارون وجلس؛ فجعلوا يعطونه منديلاً للدموع، ثم قال له: والله إن الرجل ليسرع فى مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف بمن أسرع فى أموال المسلمين.

وروى أن الحسن بن محمد دخل على عمر بن العزيز فقال له: يا عمر ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان، فقال عمر: إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وجثا على ركبتيه، فقال الحسن: من إذا يرضي لم يدخله رضاه في باطل ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

ولما ولّى عمر بن عبد العزيز وفد عليه الوفود من كل بلد فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام منهم وكان حديث السن، فقال عمر: ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه ولو أن الأمر، يا أمير المؤمنين، بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك، فقال عمر: صدقت قل ما بدا لك، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة، وقد أتيناك لمنّ الله الذي منّ علينا بك، لم نقدم إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتتنا منك إلى بلادنا وأما الرهبة فقد أمنّا جورك. فقال عمر: عظني يا غلام، فقال أصلح الله أمير المؤمنين، إن أناساً غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم أقدامهم فهووا في النار، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل قدمك فتلحق بالقوم، فلا جعلك منهم وألحقك بصالحي هذه الأمة، ثم سكت.

فسأل عمر عن سنه فإذا هو ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الحسين بن علي، فتمثل عند ذلك عمر فقال:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده صغيراً إذا التفت عليه المحافل

وفي مثل قيل للعتابي وكان لا يبالي ما لبس، ألا تجيد الملبوس؟ فقال: إنما يرفع المرء أدبه وعقله لا حليته، أخي الله امرءاً يرضى أن ترفعه هيئته وجماله، لا والله حتى يشرفه أصغراه قلبه ولسانه ويعلو به أكبراه همته ولبه.

ولما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن المنذر وهو ملك، وكان ضمرة ذا رأي وعقل، احتقرته عينه لدمامته، فقال: لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال ضمرة: أبيت اللعن أن القوم ليس بجزر تجزر وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإذا نطق نطق ببيان وإذا قال قال بجنان والرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالقبان، فأعجب النعمان بكلامه.

وروى أن روح بن زنباع كان في طريق مكة في يوم شديد الحر مع أصحابه فنزلوا وضربت لهم الخيام والظلال وقدم إليهم الطعام والشراب المبرد فبينما هم كذلك إذا هم براع فدعاه إلى الطعام، فأتى وقال: إني صائم، فقال له روح: في مثل هذا اليوم الحار، فقال الراعي:

أفأدع أيامي تذهب باطلاً، قال روح: لقد ضننت بأيامك يا راع إذ جاد بها روح بن زنباع.

وروى أن أعرابيا قام بين يدى سليمان بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنى مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته، قال: هات يا أعرابى، قال: إنى سأطلق لسانى بما خرست به الألسن بحق الله وحق أمانتك، إنك قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم فباعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فأعظم الناس غبناً يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمان: أما أنت فقد نصحت وأرجو أن الله سبحانه يعين على ما قلدنا، وقد جردت لسانك فهو صقيل، فقال: أجل يا أمير المؤمنين وهو لك لا عليك.

وقال ابن أبى عروبة: حج الحجاج فنزل فى بعض المياه بين مكة والمدينة ودعا بالغداء وقال لحاجبه: انظر من يتغدى معنا وأسأله عن بعض الأمر، فنظر نحو الجبل فإذا هو براعٍ بين شملتين نائم فضربه برجله وقال: إئت الأمير فأتاه، فقال الحجاج: اغسل يديك وتغد، فقال: دعانى من هو خير منك، قال ومن هو؟ قال: الله سبحانه دعانى للصيام فصمت، قال: فى هذا الحر الشديد، قال: نعم صمت ليوم هو أشد منه حراً، قال: فافطر وتصوم غداً، قال: إن ضمنت لى البقاء إلى غد، قال: ليس ذلك إلىّ، قال: فكيف تسألنى عاجلا بآجل لا تقدر

عليه قال: لأنه طعام طيب. قال: بم تطيبه أنت ولا الطباخ ولكن طيبته العافية.

ولما حج هارون الرشيد بعث لمالك بن أنس بكيس فيه خمس مائة دينار، فلما قضى نسكه وانصرف وقدم المدينة بعث إلى مالك بن أنس أن أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام، فقال للرسول: قل له: إن الكيس بخاتمه. قال الرسول ﷺ: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

وقال وهب بن منبه: إن ملكاً كان يفتن الناس ويحملهم على أكل لحم الخنزير، فأتى برجل أفضل أهل زمانه فأعظم الناس مكانه وهالهم أمره، فقال له صاحب شرطة الملك: أنا آتيك بجدي تذبحه مما يحل لك أكله وإذا دعا الملك بلحم الخنزير أتيتك به ففعل، ثم أتى به الملك فدعى بلحم الخنزير، فأتى صاحب الشرطة بذلك الجدى فأمره الملك أن يأكله فأبى، فجعل صاحب الشرطة يغمزه أن يأكله فأبى أن يأكله، فأمر صاحب الشرطة أن يقتله، فلما ذهب به قال: ما منعك أن تأكل وهو اللحم الذى أنت ذبحته، قال: قد علمت أنه هو ولكنني خفت أن يفتتن الناس فإن أكرهوا عى أكل لحم الخنزير قالوا: قد أكله فلان فيستن بى وأكون فتنة لهم، فقُتل.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب: يا كعب خوفنا، قلت: أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه قال بلى ولكن خوفنا.

قلت: يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل لو وافيت يوم القيامة بعمل ستين نبياً لأزدريت عملهم مما ترى، فانكسر عمر وأطرق ملياً ثم أفاق فقال: يا كعب خوفنا، قلت: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم مقدار منخار ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها، فانكسر عمر ثم أفاق وقال: يا كعب زدنا قلت: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فما يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلاّ خر على ركبتيه حتى يخر إبراهيم خليل الرحمن على ركبتيه، يقول: يا رب أسألك إلا نفسى.

واستأذن أبو دهمان على بعض الأمراء فحجبه ثم أذن له، فلما دخل قال: إن هذا الأمر الذى صار إليك قد كان فى يد غيرك فأمسوا والله حديثاً فإن خيراً فخير وإن شراً فشر، فتحجب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب فإن حب عباد الله موصول بحب الله وبغضهم وموصول ببغضه لأنهم شهداء الله على خلقه.

ولما دخل محمد بن واسع سيد العبّاد فى زمانه على بلال بن أبى بردة أمير البصرة وكان ثوبه إلى نصف ساقه، قال له بلال: ما هذه الشهرة يا ابن واسع، قال له ابن واسع: أنتم شهرتمونا هكذا! كان لباس من مضى وإنما أنتم طولتم فى ذيولكم فصارت السُّنّة بينكم بدعاً وشهرة.
وأما أنا فلما دخلت على ملك مصر وهو الأفضل بن أمير الجيوش فقلت له: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليّ السلام على نحو ما

سلمت عليه، فقلت له: أيها الملك روى عن حسن بن ياسين أنه قال: لما دخلت على عزيز مصر قلت السلام عليك أيها الملك ورحمة الله وبركاته فرد عليّ السلام أحسن رد وأجمله وأذن لى بالجلوس فجلست، ثم قلت: أيها الملك ان الله سبحانه أحلك محلاً عالياً شامخاً وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً وملكك من ملكه وأشركك فى حكمه، لم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك فلا يكون أحد أولى بالشكر منك، وأن الله سبحانه قد ألزم الورى طاعتك فلا يكون أحد أطوع لله منك. وفى رواية ابن ياسين ها هنا: وأن الله أمر عباده بالشكر فلا ترض أن يكون أحد أشكر له منك، فليس الشكر باللسان وإنما هو بالفعل والإحسان، قال الله تعالى:﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [1] واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يديك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة فإن الله يسائلك عن النقير والفتيل والقطمير قال الله سبحانه. ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [2] وقال:﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [3].
واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان ابن

---

(١) سورة سبأ، الآية ١٣.

(٢) سورة الحجر، الآيتان ٩٢، ٩٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

داود عليه السلام فسخّر له الجن والأنس والشياطين والطير والوحوش والبهائم وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب، فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله ومكراً به فقال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر، فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم، أعانك الله على ما قلدك وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف. زاد فى رواية ابن ياسين، ثم أتم المجلس بأن قال قد دوخت البلاد شرقاً وغرباً فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولد لى فيها إلا هذه المملكة، ثم أنشده.

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

وكتب حكيم إلى حكيم: إنى أسائلك عن ثلاثة أشياء إن أجبت عنها صرت لك تلميذاً، أى الناس أولى بالرحمة، ومتى يضيع أمر الناس، وبم تتلق النعم من الله سبحانه؟ فكتب إليه: أولى الناس بالرحمة ثلاثة، البر فى السلطان الفاجر فهو الدهر حزين لما يرى ويسمع، والعاقل يكون فى تدبير الجاهل فهو الدهر متعوب مغموم، والكريم يحتاج إلى اللئيم فهو الدهر خاضع له ذليل. وتضيع أمور الناس إذا كان الرأى عند من لا يقبل منه والسلاح عند من لا يستعمله والمال عند من لا ينفقه. وتتلق النعمة من الله بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معصيته. فصار تلميذاً له إلى أن مات.

قال يحيى بن سعيد: حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن العزيز رضي الله عنه فلما أشرفا على عقبة عسفان نظر سليمان إلى السرادقات قد ضربت له، فقال: يا عمر كيف ترى؟ قال: أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضاً وأنت المسؤول عنها والمأخوذ بها. فبينما هما كذلك إذ طار غراب من سرداق سليمان في منقاره كسرة فصاح، فقال سليمان: ما يقول هذا الغراب؟ فقال عمر: ما أدري ما يقول ولكن إن شئت أخبرتك بعلم، قال: خبرني، قال: هذا غراب طار من سرادقك في منقاره كسرة أنت بها مأخوذ وعنها مسؤول من أين دخلت ومن أين خرجت، قال: إنك تخبرنا بعجب، قال: أفلا أخبرك بأعجب من هذا؟ قال: بلى، قال: من عرف الله كيف عصاه ومن عرف الشيطان كيف أطاعه، ومن أيقن بالموت كيف يهنيه العيش، فقال: لقد عيبت علينا ما نحن فيه، ثم ضرب فرسه وسار.

وروى أن بلال بن أبي بردة خرج في جنازة، وهو أمير على البصرة، فنظر إلى جماعة وقوفاً فقال: ما هذا؟ قالوا: مالك بن دينار يذكر الناس، فقال لوصيف معه: اذهب إلى مالك بن دينار فقل له يرتفع إلينا إلى القبر، فجاء الوصيف فأدى الرسالة إلى مالك، فصاح مالك: لا ما لي إليه بحاجة فأجيبه فيها، فإن يكن له حاجة فليجيء إلى حاجة نفسه. فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك فلما دنا منها نزل ونزل من معه ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس، فلما رآه مالك

ابن دينار سكت فأطال السكوت، فقال له بلال: يا أبا يحيى ذكرنا، فقال: نسيت شيئاً فأذكركه؟ قال: فحدثنا، قال: أما هذا نعم، قدم علينا أمير من قبلك من البصرة فمات فدفناه في هذه الجبانة ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه فوالله ما أدرى أيهما كان أكرم على الله سبحانه، فقال بلال: يا أبا يحيي أتدرى ما الذى جرأك علينا وما الذى سكتنا عنك، لأنك لم تأخذ من دراهمنا شيئاً، أما والله لو أخذت من دراهمنا شيئاً ما اجترأت على هذه الجرأة. فأفادني الخبيث ألا فاتقوا دراهمهم.

ودخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام، قال: وما هو يا أمير المؤمنين، قال: حدثونا أن الله سبحانه إذا استرعى عبداً رعيته كتبت له الحسنات ولم تكتب عليه السيئات، قال: كذب يا أمير المؤمنين، أنبي خليفة أقرب إلى الله أم خليفة ليس بنبي؟ قال: بل نبي خليفة، قال: فأنا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لا تشك فيه، قال: الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [1] إلى آخر الآية، يا أمير المؤمنين فهذا وعيد لنبي خليفة فما ظنك بخليفة ليس بنبي، فقال: إن الناس ليغروننا عن ديننا.

---

(١) سورة ص، الآية ٢٦.

وروى زياد عن مالك بن أنس قال: بعث إليّ أبو جعفر المنصور وإلى ابن طاووس فدخلنا عليه فإذا هو جالس على فرش قد نصبت وبين يديه أنطاع قد بسطت وبين يديه جلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا قال: اجلسا فجلسنا، فأطرق عنا طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس وقال حدثني عن أبيك، قال: نعم سمعت أبي يقول: قال النبي ﷺ: إن أشد الناس عذاباًيوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فأدخل عليه الجور في حكمه، فأمسك أبو جعفر ساعة، قال مالك رضي الله عنه: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه، فأمسك ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا ابن طاووس ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، ثم قال: ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، ثم قال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها، فلما سمع ذلك قال: قوما عني، قال ابن طاووس: ذلك ما كنا نبغي. منذ [ذلك] اليوم فما زلت أعرف لابن طاووس فضله.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت رجلاً يحدث عن ابن السماك، قال: بعث إليّ هارون فلما انتهيت إلى باب القصر أخذ حرسيان بضبعي فأعجلاني في دهليز القصر فلما انتهيت إلى باب القاعة ألقيا خصيان ضخمان فأخذني فأعجلاني في قاعة القصر، فانتهيت إلى البهو

الذى هو فيه فلقينى خصيان غيرهما فأخذانى فأعجلانى فى البهو، فقال لهم هارون أرفقا بالشيخ فلما وقفت بين يديه قلت: يا أمير المؤمنين ما مر بى منذ ولدتنى أمى يوماً أتعب فيه من يومى هذا فاتق الله فى خلقه واحفظ محمداً فى أمته وانصح لنفسك فى رعيتك فإن لك مقاماً بين يدى الله تعالى أنت فيه أذل من مقامى هذا بين يديك، فاتق الله إن من أخْذ الله وسطوته كيت وكيت. قال: فاضطرب على فراشه حتى نزل إلى مصلى بين يدى فراشه، فقلت: يا أُمير المؤمنين هذا ذل الصفة فكيف لو رأيت ذل المعاينة، قال: فكادت نفسه تخرج. فقال يحيى للخصيين: أخرجاه فقد أبكى أمير المؤمنين. ودخل عليه فى مجلس آخر فقال عظني وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين إن الذى أكرمك بما أكرمك به لحقيق عليك أن تحب ما أحب وتبغض ما أبغض فوالله لقد أحب الله داراً فأبغضتها وأبغض داراً فأحببتها كأنك إنما أردت خلاف ربك أو أردت سواه، واعلم يا أمير المؤمنين أن الذى فى يديك لو بقى على من كان قبلك لم يصل إليك وكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك فاتق الله فى خلافته واحفظ وصية محمد ﷺ فى أمته.

ودخل هارون على بعض النساك فسلم عليه، فقال: وعليك السلام أيها الملك أتحب الله، قال:نعم قال أفتعصيه، قال: نعم، قال كذبت والله فى حبك إياه لو أحببته ما عصيته ثم أنشأ يقول:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمرك فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

فى كل يوم يبتديك بنعمة   منه وأنت لشكر ذاك تضيع

وروى يزيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن سليمان الهاشمى والى المدينة احذر أن يأتى رجل غداً ليس له فى الإسلام نسب ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله منك كما كانت امرأة فرعون أولى بنوح ولوط من زوجيهما، وكما كانت زوج نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته. من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ومن أسرع به عمله لم يبطء به نسبه.

وقال بشر بن السرى: بينما الحجاج جالس فى الحجر إذ دخل من أهل اليمن فجعل يطوف فوكل به بعض من معه فقال: إذا فرغ من طوافه ائتنى به فأتاه به، فقال: ممن أنت، فقال: من أهل اليمن، قال: أفلك علم بمحمد بن يوسف، قال: نعم، قال: فأخبرنى عنه، قال: قد تركته أبيض بضاً سميناً طويلاً، قال: ويلك ليس عن هذا اسألك، قال: فعمه؟ قال: عن سيرته وطعمته، قال: فأجور السيرة وأخبث الطعم وأعدى العداة على الله وأحكامه، قال: فغضب الحجاج وقال: ويلك أما علمت أنه أخى، قال: بلى، قال: أفآمنت؟ قال: أما

علمت أن الله ربى والله أمنع لى منك لأخيك، قال: أجل أرسله يا غلام.

قال الأصمعي: حدثنى رجل من أهل المدينة قال: سمعت محمد ابن إبراهيم يحدث قال: شهدت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجال من قريش وأهل البيت من المهاجرين ليسوا بقريش فقال لأبى جعفر: اجعل بيننا وبينه ابن أبى ذيب، قال أبو جعفر لابن أبى ذيب: ما تقول فى بنى فلان؟ قال: أشرار من بيت أشرار، قال سله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن يزيد وكان عامله على المدينة، قال: ما تقول فى الحسن؟ قال: يأخذ بالأحنة ويقضى بالهوى، قال الحسن: يا أمير المؤمنين والله لو سألته عن نفسك لرماك بداهية وتعتك بشر، قال: ما تقول فى؟ قال: أعفنى، قال: لابد أن تقول، قال: لا تعدل فى الرعية ولا تقسم بالسوية، قال: فتغير وجه أبى جعفر، فقام إبراهيم بن عمر ابن على صاحب الموصل فقال: طهرنى بدمه يا أمير المؤمنين، قال له ابن أبى ذيب: اقعد يا بنى فليس فى دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طهور، ثم تدارك ابن أبى ذيب الكلام فقال: يا أمير المؤمنين دعنا ما نحن فيه، بلغنا أنك رزقت أبناً صالحاً بالعراق، يعنى المهدى، قال: أما إن قلت ذلك أنه لصوام اليوم البعيد ما بين الطرفين، قال: ثم قام ابن أبى ذيب فخرج، فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمستوثق العقل ولقد قال بذات نفسه.

ودخل أبو النضر سالم مولى عبد الله بن عبد الله على عامل للخليفة فقال له: يا أبا النضر إنه تأتينا كتب من عند الخليفة فيها ما فيها ولا نجد بدًّا من إنفاذها فما ترى، فقال له أبو النضر: قد أتتك كتاب الله قبل كتاب الخليفة فأيهما اتبعت كنت من أهله.

٣ ـ فى بيان معرفة خصال ورد بها الشرع فيها نظام الملك والدول

وهى ثلاثة: اللين وترك الفظاظة، والمشاورة، وأن لا يستعمل على الأعمال والولايات راغباً فيها ولا طالباً لها.

ولما علم الله سبحانه ما فيها من انتظام أمر الملة واستقامة الإمرة نص عليها هو ورسوله.

اعلم أن هذه الخصال من أساس الممالك وقل ما يعمل بها من الملوك، اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قالها الرسول ﷺ. أما الإلهية فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [1]، وفى الآية إشارتان إحداهما أن الفظاظة تنفر الأصحاب والجلساء وتفوق الجموع والحشم، وإنما الملك فلك بجلسائه وأصحابه وحشمه واتباعه، وأخلق بخصلة تنفر الأولياء أن تطمع الأعداء فقمن بكل ذى سلطان رفضها والاحتراز من سوء مغبتها

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

وليكن كما قال الله سبحانه: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وروى أن النبى ﷺ كان جالساً مع أصحابه فجاء رجل فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقالوا: هذا الأبيض المتكئ فقال الرجل: يا ابن عبد المطلب فقال النبى ﷺ: قد أجبتك. دل الأثر على أنه ما استأثر بشرف المجلس ولا باينهم بزى ولا مقعد، وقد بلغ باللين ما لم يبلغ بالغلظة. ألا ترى أن الرياح تهول أصواتها فيتداخل لها الشجر وتنعطف الأفنان والأغصان وفى الفرط تتكسر الأغصان. والماء بلينه فى أصول الشجر يقلعها من أصلها. وإذا كانت الحية مع صعوبتها وسمها وتغيبها فى حجرها ترقى بالكلام حتى تستعطف فتخرج، فالإنسان أحرى أن يستمال بلين القول وحسن المنطق، وإذا أردت أن تنتقم ممن يسئ إليك فكافئه بكل كلمة سوء قالها كلمة جميلة وحسن ثناء عليه.

والإشارة الثانية أنه قال: وشاورهم فى الأمر، فإذا قيل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وإمامهم فواجب عليهم مشاورته وأن لا يفصلوا أمراً دونه قلنا: هذا أدب أدّب الله نبيه به وجعله مأدبة لسائر الملوك والأمراء والسلاطين لما علم الله ما فى المشاورة من حسن الأدب مع الجليس ومساهمته فى الأمور، فإن نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

تصلح عليه وتميل إليه وتخضع عنوة بين يديه شرعه شرعة لنبيه ﷺ ولذوى الإمرة من أهل ملته، ألا ترى أن النبى ﷺ كان فى غزاة فأمرهم بالنزول فقال له سعد: يا رسول الله إن كان هذا بأمرك فسمعاً وطاعة وإن يكن على غير ذلك فليس بمنزل فسمع منه النبى ﷺ وقال: ارتحلوا.

ومن أقبح ما يوصف به الرجال ملوكاً كانوا أو سوقة الاستبداد بالرأى وترك المشاورة: وسنعقد للمشاورة باباً إنشاء الله.

والخصلة الثالثة ما روى البخارى ومسلم وغيرهما أن رجلاً قال: يا رسول الله استعملنى. فقال النبى ﷺ: إنا لا نستعمل على عملنا من أراده. والسر فيه أن الولايات أمانات وتصرف فى أرواح الخلائق وأموالهم، والتسرع إلى الأمانة دليل على الخيانة وإنما يخطبها من يريد أكلها، وإذا اؤتمن خائن على موضع الأمانات كان كمن يسترعى الذئب الغنم، ومن هذه الخصلة تفسد قلوب الرعايا على ملوكها لأنها إذا اهتضمت حقوقهم وأكلت أموالهم فسدت نياتهم فأطلقوا ألسنتهم بالدعاء والتشكى وذكّروا سائر الملوك بالعدل والإحسان، وكانوا كالبيت أنشدناه:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الذئب لها رعاء

وإذا خان أهل الأمانات وفسد الولايات كان الأمر كما قال الأول:

بالملح يصلح ما يخشى تغيره فكيف بالملح إن حلّت به الغير

وقال آخر:

ذئب تــــراه مــــصلياً فــإذا خلــوت بــه ركــع

يدعــو وجــل دعائــه مــا للفريــسة مــا تقــع

عجــل بهــا يــا ذا العلــى إن الفــؤاد قــد انقطــع

ومن أشراط الساعة التصدي للأمانة وخطبة الولاية، وروى أن النبي ﷺ قال: من أشراط الساعة أن تكون الزكاة مغرماً والأمانة مغنماً.

فحينئذ يدعو عليه الضعيف وأهل الصلاح، ويقعد له بالمرصاد الشرير ويجاهر عليه القوي ويقبح ثناؤه عند الجماعة ويتمنون الراحة منه وينظرون من يصلح لها سواه.

٤ ـ فى معرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ولا ثبات له دونها

فأولى الخصال وأحقها بالرعاية العدل الذى هو قوام الملك ودوام الدول وأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو صلاحية.

اعلم أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه إنه ليس كل النفوس تصلح على العدل، بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [١]. فلو وسع الخلق العدل ما قرن به الإحسان، فمن لم يصلح حتى يراد على العدل فكيف يصلح إذا لم يبلغ به العدل.

والعدل ميزان الله فى الأرض الذى به يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل، وليس موضع الميزان بين الرعية فقط بل بين السلطان والرعية أيضاً، فمن أزال ميزان الله الذى وضعه من القيام بالقسط فقد تعرض لسخط الله.

واعلم أيها الوالى أن المُلك بمنزلة رجل فرأسه أنت وقلبه وزيرك

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٠.

ورجلاه رعيتك ويداه أعوانك وروحه عدلك وما بقى جسد بلا روح.

وإذا أردت ذورة العدل فاعلم أن الرعية ثلاثة أنفس: كبير وصغير ووسط، فاجعل كبيرهم أباً وأوسطهم أخاً وصغيرهم ابناً، فبر أباك وأكرم أخاك وارحم ابنك فإنك واصل بذلك إلى بر الله وكرامته ورحمته.

واعلم أن عدل الملك يوجب الاجتماع عليه وجوره يوجب الافتراق عنه. عدل الملك حياة رعيته.

وفى منثور الحكم: سلطان جائر أربعين عاماً خير من رعية مهملة ساعة واحدة من النهار. إذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح له ما بعُد عنه. فضل الملوك فى الإعطاء وشرفها فى العفو وعزها فى العدل.

عدة السلطان ثلاثة: مشاورة النصحاء وثبات نيات الأعوان وإقامة سوق العدل. أفضل الأزمنة أئمة العدل.

ثم العدل ينقسم قسمين: قسم إلهى جاءت به الرسل والأنبياء عليهم السلام عن الله تعالى، والثانى ما يشبه العدل وهو السياسة الاصطلاحية التى هرم عليها الكبير ونشأ عليها الصغير، وبعيد أن يبقى سلطان أو تستقيم رعيته، فى حال إيمان أو كفر، بلا عدل قائم ولا ترتيب للأمور ثابت، فذاك ما لا يجوز ولا يمكن.

وقد ذكرنا فى أول الكتاب أن سليمان بن داود سُلب ملكه حين جلس الخصمان بين يديه وكان لأحدهما خاصة بسليمان، فقال فى

نفسه: وددت أن يكون الحق خاصمني فأقضي له فسلبه الله ملكه وقعد الشيطان على كرسيه. فاجعل العدل رأس سياستك فيسقط عنك جميع الآفات المفسدة للسياسة وتقوم لك جميع الشرايط التي تقوم بها المملكة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم.

وقال ابن مسعود: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر وإن كان جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر.

وقال سليمان بن داود عليه السلام: الرحمة والعدل يحرزان الملك.

واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا: الملك بناء والجند أساسه فإذا قوى الأساس دام البناء وإن ضعف الأساس انهار البناء فلا سلطان إلا بجند ولا جند إلا بمال ولا مال إلا بجباية ولا جباية إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل. فصار العدل أساساً لسائر الأساسات.

[فصل ١] ـ فأما العدل النبوي، فأن يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الأدلة على الله والقائمون بأمر الله والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله.

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: إن الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. فتخذ أيها الملك العلماء شعاراً والصالحين دثاراً فتدور المملكة بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء، وأخلق بملكك يدور بين هاتين الخصلتين أن يقوم عموده ويطول أمده، وكيف لا وقد قربهم الله في سلطانه واصطفاهم بخالص معرفته، فقال جل من قائل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [1]، فبدأ بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأولي العلم وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام والموقعون عن الله تعالى لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما أورثوا العلم. ففي تعظيمهم وتقريبهم امتثال لأمر الله تعالى وتعظيم لمن أثنى الله عليه. ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عن من سواهم.

قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [2]. وفيه استمالة قلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته وتوقيره، فواجب على السلطان ألا يقطع أمراً دونهم ولا يفصل حكماً إلا بمشاورتهم لأنه في ملك الله يحكم وفي شريعته يتصرف وأقل الواجبات على السلطان أن ينزل نفسه مع الله منزلة ولاته معه، أليس إذا خالف واليه أمره وما رسمه له من الأحكام

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨.
(٢) سورة المجادلة، الآية ١١.

عزله وعاقبه ولم يأمن سطوته، وإذا امتثل أوامره وازدجر عن زواجره حل منه محل الرضى، فواعجباً لمن يغضب على واليه إذا خالفه ثم لا يخاف سطوة ربه عليه إذا خالفه.

فهذا طريق إقامة العدل الشرعي والسياسة الإسلامية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لأزمة التدبير السالمة من العيوب، الممهدة لاستقامة الدنيا والدين. وكما أن الملك الحازم لا يتم حزمه إلا بمشاورة الوزراء الأخيار كذلك لا يتم عدله إلا باستفتاء العلماء الأبرار.

وقد وقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: يا عمرو عمّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها. وفي إشاعة العدل قوة القلب وطيبة النفس ولزوم اليقين وأمان من العدو.

ولما استأذن الهرمزان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يجد عنده حاجبًا ولا بوّابًا فقيل له هو في المسجد، فأتى المسجد فوجده مستلقياً متوسداً كوماً من الحصى ودرته بين يديه، فقال له: عدلت فأمنت فنمت.

وقال الحسن: رأيت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وقد جمع الحصى في مسجد النبي ﷺ عند رأسه وقد وضع أحد جانبي ردائه عليه وهو يومئذ أمير المؤمنين، ما عنده أحد من الناس ودرته بين يديه.

وكتب عامل حمص إلى عمر بن عبد العزيز إن مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت إلى الإصلاح. فكتب إليه عمر: حصنها بالعدل ونق طرقها من الجور.. والسلام.

وقالت الحكماء: من حرم العدل فلا خير له ولا للناس في سلطانه.

وقال يحيى بن أكثم: ماشيت المأمون في بستان والشمس عن يسارى والمأمون في الظل، فلما رجعنا وقعت الشمس أيضاً عليّ فقال لي المأمون: تحول مكاني وأتحول مكانك حتى تكون في الظل كما كنت وأقيك الشمس كما وقيتني، فإن أول العدل أن يعدل الرجل على بطانته ثم الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى، فعزم عليّ فتحولت.

وكان يقال ليس شيء أبعد من بقاء ملك غاصب.

وقيل للإسكندر: لو أكثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحيى ذكرك، فقال: إنما يحيى الذكر الأفعال الجميلة والسير الحميدة، ولا يحسن بمن يغلب الرجال أن تغلبه النساء.

وقال الحكيم: من اتخذ العدل سنّة كان له أحصن جُنَّة، ومن استشعر حلة العدل استكمل زينة الفضل.

وقال أبو عبيد بن عبد الله بن مسعود: إن الأمام العادل ليسكت الأصوات عن الله تعالى، وإن الإمام الجائر لتكثر منه الشاكية إلى الله تعالى.

وقال الحكيم: لا يزال السلطان ممهلاً حتى يتخطى إلى أركان العمارة ومباني الشريعة فحينئذ يريح الله منه.

وقالوا: لا تظلم الضعفاء فتكون من لئام الأقوياء. وقال بعض الحكماء: أمير بلا عدل كغيم بلا مطر، وعالم بلا ورع كأرض بلا نبات، وشاب بلا توبة كشجر بلا ثمر، وغنى بلا سخاء كقفل بلا مفتاح، وفقير بلا صبر كسراج بلا ضوء، وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح.

وقال كسرى: اتفقت ملوك العجم على أربع خصال: إن طعام لايؤكل إلا على شهوة، والمرأة لا تنظر إلا إلى زوجها، والملك لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل. وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل الملوك الذين بعدلهم يعدل من دونهم والذين إذا قالوا أو فعلوا كان نافذاً غير مردود.

وقالت الحكماء: زُم ما شئت بالإنصاف وأنا زعيم لك بالظفر به، والظلم ادعى شيء إلى تغيير نعمة أو تعجيل نقمة.

وقال الحكيم: شر الزاد إلى المعاد الذنب بعد الذنب وشر من هذا العدوان على العباد، ومتى أراد السلطان بُعد الصيت وجميل الذكر فليقم سوق العدل وإن أحب الزلفى عند الله وشرف المنزلة فليقم سوق العدل وإن أحبهما جميعاً فليقم سوق العدل. والذى يخلد به ذكر الملوك على غابر الدهور عدل واضح أو جور فاضح، هذا يوجب له الرحمة وهذا يوجب له اللعنة.

[فصل ٢] ـ وأما القسم الثاني من العدل وهو السياسة الاصطلاحية، وإن كان أصلها على الجور، فيقوم بها أمر الدنيا وكأنها تشاكل مراتب الإنصاف على نحو ما كانت عليه ملوك الطوائف في أيام الفرس وكانوا كفاراً بالله يعبدون النيران ويتبعون هواجس الشيطان، فتواضعوا بينهم سنناً وأسسوا لهم أحكاماً وأقاموا لهم مراتب في التصفة بين الرعايا واستجباء الخراجات وتوظيف المكوس على التجارات، وكل ذلك بعقولهم على وجوه ما أنزل الله بها من سلطان ولا نصب عليها برهاناً. بيد أنه لما جاءت الشريعة من عند الله سبحانه على لسان رسوله صاحب المعجزة محمد ﷺ، فمنها ما أقرته في نصابه ومنها ما نسخته وأبطلت حكمه، فعادت الحكمة البالغة إلى أمر الله سبحانه والحكم بما أنزل الله سبحانه وبطل سواه.

فكان مُلكهم محفوظاً برعايتهم القوانين المألوفة بينهم؛ فانقطع حبل الهمل، وكانوا يقيمون بها واجب الحقوق ويتعاطون بها ما لهم وما عليهم، وعن هذا يقال: السلطان المؤمن العدل في نفسه المضيع للسياسة النبوية العدلية. والجور المرتب أبقى من العدل المهمل إذ لا شيء أصلح لأمر السلطان من ترتيب الأمور ولا شيء أفسد له من إهمالها.

واعلم أن درهماً يؤخذ من الرعية على وجه الإهمال والخرق وإن كان عدلاً أفسد لقلوبهم من عشرة تؤخذ منها بسياسة على زمام

معروف ورسم مألوف. وإن كان جوراً فلا يقوم السلطان لأهل الإيمان ولا لأهل الكفر، إلا بإقامة العدل النبوى أو ما يشبه العدل من الترتيب الاصطلاحي.

وقال ابن المقفع: الملوك ثلاثة ملك دين وملك حزم وملك هوى، فأما ملك الدين فإنه إذا أقام لأهل المملكة دينهم وكانوا راضين، كان الساخط فيها بمنزلة الراضي. وأما ملك الحزم فيقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى. وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر.

ولقد بلغنا أن ملكاً من ملوك الهند نزل به صمم فأصبح مسترجعاً مهتماً بأمور المظلومين وأنه لا يسمع استغاثتهم، فأمر مناديه ألا يلبس أحد فى مملكته ثوباً أحمر إلا مظلوم، وقال: لئن منعت سمعى لم أمنع بصرى، فكان كل من ظُلم لبس ثوباً أحمر ووقف تحت قصره فيكشف عن ظلامته.

وأخبرنى أبو العباس الحجازى وكان ممن دخل الصين، بسيرة عجيبة غريبة لملوكها فى سياستهم وذلك إن البيت الذى يكون فيه الملك فيه ناقوس موصول بسلسلة وطرف السلسلة فى خارج الطريق وعليها أمناء للسلطان وحفظة، فيأتى المظلوم فيحرك السلسلة فيسمع الملك صوت الناقوس، فيأمر بإدخال المظلوم، فكل من حرك تلك السلسلة تمسكه تلك الحفظة حتى يدخل إلى السلطان.

٥ ـ فى معرفة الخصال التى هى أركان السلطان

قال أبو جعفر المنصور: ما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة. لا يكون على بابى أعف منهم، قيل: من هم يا أمير المؤمنين؟ قال: هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم فإن نقص منها قائمة واحدة عابه: أحدهم قاضى لا تأخذه فى الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى غنى عن ظلمهم، ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه، قيل: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا يصلح الوالى إلا بأربعة خصال إن نقصت واحدة لم يصلح له أمره، قوة على جمع المال من أبواب حله ووضعه فى حقه، وشدة لا جبروت فيها، ولين لا وهن فيه.

٦ ـ فى حاجة السلطان إلى العلم

قال ابن المقفع: إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك فإن زوال الكرامة بزوالها، ولكن يعجبك إن أكرموك لعلم أو أدب أو دين.

اعلم أرشدك الله أن أكثر الناس حاجة إلى النفقة أكثرهم عيالاً وأتباعهم وحشماً وأصحاباً، والخلق كلهم مستمدون من السلطان الخلائق السنية والطرائق العلية، مفترقون إليه فى الأحكام وقطع التشاجر وفصل الخصام فهو أحوج خلق الله إلى معرفة العلوم وجمع الحكم، وشخص بلا علم كدار بلا أهل وأفضل ما فى السلطان خصوصاً وفى الناس عموماً محبة العلم والتحلى به والشوق إلى استماعه والتعظيم لحملته، فإن ذلك دليل على قوة الإنسانية فيه وبعده عن البهيمية ومضاهاته للعالم العلوى، وهو من أوكد ما يتحبب به إلى الرعية، وإذا كان الملك خالياً من العلم ركب هواه وأضر برعيته كالدابة بلا رسن تمر فى غير طريق وقد تتلف بما تمر عليه.

واعلم أن زهر الفضائل وحسن المناقب وبهاء المحاسن وما ضاد ذلك من قبح المثالب وفحش الرذائل، كل ذلك يظهر عليك ويعظم

منك بقدر ما أوتيته من علو المنزلة وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن كما يكون قبحك أقبح.

وليس أحد من أهل الدرجات السنيّة والمراتب العليّة، أحوج إلى مجالسة العلماء وصحبة الفقهاء ودراسة كتب العلوم والحكم ومطالعة دواوين العلماء ومجامع الفقهاء وسير الحكماء، من السلطان. وإنما كان كذلك لوجهين أحدهما أنه قد نصب نفسه لممارسة أخلاق الناس وفصل خصوماتهم وتعاطى حكوماتهم وكل ذلك يحتاج إلى علم بارع ونظر ثاقب وبصيرة بالعلم قوية ودراسة طويلة، وكيف يكون حاله إن لم يعد هذه الأمور عدتها ولم يقدم لها أهبتها، والثاني أن من سواه من الناس لا يعدمون من يكسر عليهم ويعارضهم فيذكر لهم مساوئهم ويخالفهم في مذاهبهم فيكون ذلك فيما يعنيهم على رياضة أنفسهم ويعلمهم مراشدهم، ومناظرة الأكفاء ومعاشرة النظراء تلقيح العقول وتهذيب النفوس وتدريب لمآخذ الأحكام، بخلاف السلطان فإن ارتفاع درجته يقطع عنه جميع ذلك إذ لا يلقاه ولا يجالسه إلا معظم لقدره مبجل لشأنه وساتر لمساوئه ومادح له بما ليس فيه وإنما جوابهم: صدق الأمير وعلى قدر المرتبة يكون علو السقطة، كما أن على قدر ارتفاع الحائط يكون صوت الوجبة.

فصل: يا أيها الملك ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد أجل قدراً من أن يقبل أمر الله ولا أرفع خطراً من أن يتعلم حكم الله ولا أعلى شأناً من أن يتصف بصفات الله ومن صفات الله تعالى العلم

الذى وصف الله تعالى به نفسه ويمدح بسعته فقال تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [1] والكرسى العلم والكراسى هم العلماء.

وإذا كان العلم فضيلة فرغبة الملوك وذوى الأقدار والشيوخ أولى لأن الخطأ منهم أقبح والابتداء بالفضيلة فضيلة، حتى أن إبراهيم ابن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه، فقال: يا عم ما عندك فيما يقول هؤلاء؟، فقال: يا أمير المؤمنين شُغلنا فى الصغر واشتغلنا فى الكبر، فقال المأمون: لِمَ لا تتعلم اليوم؟، فقال: أو يحسن بمثلى طلب العلم، فقال: نعم والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل قال: وإلى متى يحسن طلب العلم؟،قال: ما حسنت بك الحياة.

وروى أن بعض الحكماء رأى شيخاً يحب النظر فى العلم ويستحى فقال: يا هذا أتستحى أن تكون فى آخر عمرك أفضل مما كنت فى أوله، ولأن الصغير أعذر وإن لم يكن فى الجهل عذر؟.

وفى منثور الحكم جهل الشباب معذور وعلمه محقور وأما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه أفضح لأن علو السن إذا لم يكسبه فضلاً ولم يفده علماً، كان الصغير أفضل منه لأن الأصل فيه أقوى، وحسبك نقيصة فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل أفضل منه.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

وكل ما ذكرناه من حاجة العلم فحاجة السلطان إليه أكثر ودواعيه إلى أكتسابه أشد لأن من عداه إنما تخصه نفسه الواحدة فيقرب عليه تحصيل ما يقوتها به، والملك منتصب لسياسة أهل مملكته وتعليمهم وتقويم أودهم فهو للعلم أحوج.

وقال الشاعر:

إذا لم يكن مر السنين مترجماً عن الفضل في الإنسان سميته طفلا

وما تنفع الأيام حين نعدها ولم تستفد فيهن علماً ولا عقلا

أرى الدهر من سوء التصرف مائلاً إلى كل ذي جهل كأن به جهلا

وقال بعض الحكماء: كل عز لا يوطده علم مذلة وكل علم لا يزيده عقل فضلة، كيف يستنكف ملك أو ذو منزلة علية من طلب العلم، وهذا موسى عليه السلام ارتحل من الشام إلى مجمع البحرين أقصى المغرب على بحر الظلمات[1] إلى لقاء الخضر ليتعلم منه فلما ظفر به قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [2]؟، هذا وهو نبي الله وكليمه؟.

وهذا محمد رسول الله ﷺ وصفوته من جميع خلقه وقد وصاه ربه سبحانه وعلمه كيف يستنزل مما في خزائنه فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [3]، فلو كان في خزائنه أشرف من العلم لنبهه عليه.

---

(١) أي المحيط الأطلسي.

(٢) سورة الكهف، الآية ٦٦.

(٣) سورة طه، الآية ١١٤.

وهذا آدم عليه السلام لما فخرت الملائكة بتسبيحها وتقديسها لربها تعالى وفخر آدم بالعلم، قال تعالى: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [1] فلما عجزوا أمرهم بالسجود له. وأخلق بخصلة تستدعي السجود لحاملها أن يتنافس فيها كل ذي لب وهذا فصل الخطاب لمن تدبره.

ولا تنصبن لك عذراً بما روى فى بعض الأخبار مثل من يتعلم بالعلم فى الصغر كالوشم على الصخر والذى يتعلم فى الكبر كالنقش على الماء،فقد سمع الأحنف رجلاً يقول: التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر فقال الأحنف: الكبير أكبر عقلاً ولكنه أشغل قلباً، ففحص عن المعنى ونبه على العلة.

وقد كان أصحاب النبى ﷺ يسلمون شيوخاً وكهولاً وأحداثاً وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن وهم بحور العلم وأطواد الحكمة ومعادن الفقه، غير أن التعلم فى الصغر أرسخ أصولاً وأبسق فروعاً، وليس إذا لم يحزه كله يفته كله.

قال رجل لأبى هريرة: إنى أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال أبو هريرة: كفى بتركك له تضييعاً وبعض الخير خير من كل الشر.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣١.

ومثل الجاهل تحت عبء الجهل مثل الجمل تحت حمل ثقيل فإذا هو كلما أعيى نقصه قليلاً يوشك أن ينقصه كله فيستريح منه، وإن هو لم يطرح القليل حتى يطرح الكثير فما أوشك أن يصرعه حمله، وكذلك الجاهل إذا تعلم قليلاً قليلاً يوشك أن يأتي على بغيته، وإن لم يتعلم في الكبر لما فاته في الصغر فأوشك به أن يموت تحت عبء الجهل.

٧ ـ في وصية أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد بالعلم وأهله

قال كميل بن زياد النخعي: خرجت مع علي بن أبي طالب رضى الله عنه إلى الجبان[1]، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال: يا كميل ابن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير، احفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا منه إلى ركن. وثيق العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة والعلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العلم دين يدان الله به تكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته. مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، أشخاصهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة.

ها أن ها هنا، أشار بيده إلى صدره، علماً جمًّا لو أصبت له حملة، بلى

---

(١) أي الجبانة وهي المقبرة.

قد أصبت لقناً غير مأمون عليه يستعمل الدين للدنيا فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه أو كما قال وبنعمه على عباده أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، إلا لا ذا ولا ذاك، أو مقهور باللذات سريع الانقياد إلى الشهوات، أم آخر شأنه جمع المال والادخار ليسا من رعاة الدين، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة. اللهم فكذلك يموت العلم بموت حامليه، ولكن لن تخلو الأرض من قائم لله سبحانه بحجة لئلا تبطل حجج الله وبيناته ومن أولئك؟ وأين أولئك: أولئك الأقلون عدداً الأكثرون عند الله قدراً تخزن الحكمة في قلوبهم حتى يودعونها في قلوب أشباههم ويودعونها صدور نظرائهم. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استخشنه المترفون واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأجساد أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله في بلاده ودعاته إلى دينه، هام شوقاً إلى رؤيتهم.

٨ ـ فى المشاورة والنصيحة

وهذا الباب مما يعده الحكماء من أساس المملكة وقواعد السلطنة ويفتقر إليه الرئيس المرؤوس، وقد ذكرناه فى باب الخصال الفرقانية ونذكر هاهنا فوائدها ومحاسنها. اعلموا أن المستشير وإن كان أفضل من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالسليط ضوءًا، فلا يقذفن فى روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة، فإنك لا تريد الرأى للفخر به ولكن للانتفاع به، وإذا أردت الذكر كان أفخر لذكرك وأحسن عند ذوى الألباب لسياستك أن يقولوا لا تنفرد برأيه دون ذوى الرأى إخوانه، فلا يمنعك عزمك على إنفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام أُمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها فحمله حسن الأدب وعلمه بموقعه فى النفوس على الاستشارة فيه، فقال لابنه: ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾[1]، وهذا من أحسن ما يرسم فى هذا الباب.

---

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرأي الفرد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطان والثلاثة آراء لا تكاد تنقطع.

ويروى أن رومياً وفارسياً تفاخرا فقال الفارسي: نحن لا نملك علينا من يشاور، فقال الرومي: نحن لا نملك من لا يشاور.

وقال برزجمهر: إذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها فالتمسها فوجدها، كذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص له الصواب.

وكان يقال: من كثرت استشارته حمدت إمارته. وفي حكم الهند قال بعض الحكماء: إن الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بموارده من الأنهر، وينال بالحزم والرأي ما لا يناله بالقوة والجند، ولم يزل حزمة الرجال يستحلون مرائر قول النصحاء كما يستحلي الجاهل المساعدة على الهوى.

وقال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي أخلاق المخلوع، يعني أخاه الأمين، فقال: كان واسع الصدر ضيق الأدب، يشح من نفسه ما يأمنه همم الأحرار، ولا يصغي إلى نصيحة ولا يقبل مشورة، يستبد برأيه فيرى سوء عاقبته فلا يردعه ذلك عما يهم به، قال: فكيف كانت حروبه، قال: كان يجمع الكتائب بالتبذير ويفرقها بسوء التدبير، فقال المأمون: لذلك ما حل محله، أما والله لو ذاق لذات النصائح واختار مشورات الرجال وملك نفسه عند شهوتها ما ظفر به.

وقال بعضهم: إنفاذ الأمور بغير روية كالعبادة بغير نية، ولم يزل العقلاء على اختلاف مذاهبهم يشهدون الغيوب ويستشيرون صواب الرأى من كل أحد حتى الأمة الوكعاء.

هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول يرحم الله أمرأً أهدى إلى عيوبى.

وكان يقال من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال بعضهم: خمير الرأى خير من فطيره وتأخيره خير من تقديمه.

وذكر صاحب كتاب التاج: إن بعض ملوك العجم استشار وزراءه، فقال أحدهم: لا ينبغى للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً فإنه أموت للسر وأحزم فى الرأى وأجدر فى السلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض. وكان بعض ملوك العجم إذا شاور مرازبته فقصروا فى الرأى دعا الموكلين بأرزاقهم فعاقبهم، فيقولون تخطئ مرازبتك وتعاقبنا فيقول نعم لم يخطئوا إلا لتعلق قلوبهم بأرزاقهم وإذا اهتموا أخطأوا، وكانوا إذا اهتموا بمشاورة رجل بعثوا إليه بقوته وقوت عياله لسنته ليتفرغ لبه. وكان يقال: النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت. وإذا شاورت فاصدق الخبر تصدقك المشورة ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك.

وقال بعض ملوك العجم: لا يمنعك شدة بأسك فى باطنك ولا علو مكانك فى نفسك من أن تجمع إلى رأيك رأى غيرك فإن

(أصبت حُمدت) وإن أخفقت عذرت، فإن فى ذلك خصالاً منها إن وافق رأيك رأى غيرك ازداد رأيك شدة عندك وإن خالفه عرضته على نظرك فإن رأيته معتلياً لما رأيته قبلته وإن رأيته متضعاً عنه استغنيت، ومنها إنه تجد فى ذلك، النصيحة ممن شاورته وإن أخطأ وتمحض لك مودته وإن قصر.

ولو لم يكن من فضيلة المشاورة إلا أنك إن أصبت مستبداً سُلبت فائدة الإصابة بألسنة الحسد وقال قائل: هذا اتفاق ولو فعل كذلك لكان أحسن، وإذا شاورت فأصبت حمد الجماعة رأيك لأنهم لنفوسهم يحمدون وإن أخطأت حملت الجماعة خطأك لأنهم عن نفوسهم يكافحون. واعلم إن القول الغليظ يُستمع لفضل عاقبته كما يُتكاره شرب الدواء المر لفضل مغبته. وقال إعرابي: ما عثرت قط حتى عثر قومي، قيل له: وكيف ذاك؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم. وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم يا بني عبس؟. فقال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ونحن نطيعه فكنا ألف حازم.

وكان ابن هبيرة أمير البصرة يقول: اللهم إني أعوذ بك من صحبة من غايته خاصة نفسه ولا يحتاط من هوى مستشيره.

وفى حكم الهند: من التمس من الأخوان الرخصة عند المشورة ومن الأطباء عند المرض ومن فقهاء عند الشبهة، أخطأ الرأى وازداد مرضاً وحمل الوزر.

وقالت الحكمـــاء: لا تشـاور معلماً ولا راعيــاً ولا كثير القعود مع

النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفاً ولا من يرهقه أحد السبيلين.

وقالوا: لا رأى لحاقن ولا لحازق ولا لحاقب، ولا تشاور من لا دقيق عنده. الحارق هو الذى ضغط الخف الضيق رجله والحاقب هو الذى يجد فى بطنه رزاً.

وقالوا: من شكا إلى عاجزاً أعاره عجزه وأمده من جزعه.

ومن لطيف ما جرى فى الاستشارة إن زياد بن عبيد الله الحارثى استشار عبيد الله بن عمر فى أخيه أبى بكر أن يوليه القضاء فأشار، فبعث إلى أبى بكر فامتنع عليه فبعث زياد إلى عبيد الله يستعين به على أبى بكر، فقال أبو بكر لعبيد الله: أنشدك الله أترى لى القضاء؟ قال: اللهم لا، فقال زياد: سبحان الله استشرتك فأشرت به ثم أسمعك تنهاه، فقال: أيها الأمير استشرتنى فاجتهدت لك الرأى ونصحتك ونصحت للمسلمين واستشارنى فاجتهدت له رأيى ونصحته. ويروى أن الحجاج بعث إلى المهلب يستعجله حرب الأزارقة، فكتب إليه المهلب إن من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره.

فصل فى النصيحة: اعلم أن النصح للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين، قال الله تعالى أخباراً عن نوح عليه السلام: **﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾** [1]، وقال شعيب عليه السلام: **﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ**

---

(١) سورة هود، الآية ٣٤.

ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾[1]. وقال صالح عليه السلام: ﴿ وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين. وروى أبو هريرة رضى الله عنه: أن النبي ﷺ قال: إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة قيل: لمن يا رسول الله، قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم.

فالنصح فى الجملة فعل الشيء الذى به الصلاح، والصلاحة مأخوذة من النصاحة وهى السلوك التى يخاط بها وتصغيرها نصيحة، تقول العرب: هذا قميص منصوح أى مخيط ونصحته مصحاً إذا خطته.

ويختلف النصح فى الأشياء لاختلاف أحوال الأشياء، فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس بأهل له عقلاً وقولاً والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهراً وباطناً والرغبة فى محاله والبعد عن مساخطه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد فى رد العصاة إلى طاعته قولاً وإرادة بث جميع ما ذكرناه فى عباده.

والنصيحة لكتابه إقامته فى التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه واستعماله والذب عنه من تأويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٩٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٩.

ما فيه للخلائق أجمعين. قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (١).

والنصيحة للرسول ﷺ، مؤازرته ونصرته والحماية من دونه حياً وميتاً وإحياء سننه بالطلب وإحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة والتخلق بالأخلاق الطاهرة.

والنصيحة للأئمة، معاونتهم على ما تكلفوا القيام به في تنبيههم عند الغفلة وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة ونصرتهم في جمع الكلمة إليهم ورد القلوب إليهم. والنصح لجماعة المسلمين، والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم إلى ما يسعدهم وتوقي ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوسواس عليهم، ومن النصيحة للمسلمين رفع مؤنة يديه ونفسه وحوائجه عنهم.قيل: إنه لقط عمر بن الخطاب رضي الله عنه نواة من الطريق وأمسكها بيده حتى مر بدار قوم فألقاها في الدار، وقال: يأكلها داجنهم.

والنصح لجميع الملل، أن يحب إسلامهم ويدعوهم إلى الإيمان بالقول ويحذرهم سوء مغبة الكفر بالسيف إذا كان ذا سلطان أو يكفوا عن قتال المسلمين فيكونوا ذمة وإلا فالقتل نصحاً لله، لإقامة أمره فيهم.

---

(١) سورة ص، الآية ٢٩.

روى معاذ[1] رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، العمل لله ومناصحة ولاة الأمر والاعتصام بجماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط بمن وراءهم.

وروى جابر بن عبد الله: بايعت النبى ﷺ على السمع والطاعة فلقننى فيما استطعت والنصح لكل مسلم.

وروى أنس أن النبى ﷺ قال: لا يؤمن المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وقال أبو الدرداء: العلم يبلغه البر والفاجر، والنصيحة لله لا تثبت إلا فى قلوب المنتخبين من الذين صحت عقولهم وصدقت نياتهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم، وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله أمرأ أهدى إلى عيوبى.

وقال ميمون بن مهران: قال لى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: قل لى فى وجهى ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكرهه.

وقال مالك: النصيحة لله فى أرضه هى التى بعث بها أنبياءه.

ومن أمر الإسلام القصد والنصيحة لعباد الله فى أمورهم، والنفوس مستثقلة للنصح نافرة عن أهله مائلة إلى ما يوافق هواها.

---

(١) معاذ بن جبل صاحب رسول الله ﷺ، انظر كتابه (معاذ بن جبل) إمام العلماء، القاهرة. ١٩٩٠.

وفي منثور الحكمة، ودك من نصحك وقلاك من مشى في هواك.

وكان يقال: أخوك من احتمل ثقل نصيحتك. وقال بعضهم:

عرضت نصيحة مني لزيد فقال غششتني والنصح مسر

ومالي أن أكون نصحت زيداً وزيد طاهر الأثواب بر

ولكن قد أتاني أن زيداً يقال عليه في بقعاء شر

فقلت له تجنب كل شيء يقال عليك إن الحر حر

وقال آخر:

وعلى النصوح نصيحتي وعلى أن أعصى النصوح

وللقطامي:

ومعصية الشقيق عليك مما يزيدك مرة منه استماعا

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعا

وقال ورقة بن نوفل[1]:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته إلا الإله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

---

(١) ورقة بن نوفل القرشي، وهو ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها.

وقال ابن وهب[1]: إنما يحسن الاختيار لغيره من يحسن الاختيار لنفسه. وقال بعضهم: رأيي ورأيك في المعرفة أمثل لنفسك من رأيك لأنه خُلق من هواك.

وقال أبو الدرداء: إن شئتم لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ويعملون في الأرض نصحاً.

وروى أن رجلاً لطم إبراهيم بن أدهم فرفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي إنك تثيبني وتعاقبه فلا تثيبني ولا تعاقبه.

ومن الخصال التي تجرى مجرى الجمال والكمال: الحلم.

---

(١) عبد الله بن وهب (١٩٧ هـ) فقيه ومفسر.

٩ - فى الحلم

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[(١)] وقال: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾[(٢)].

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: الصفح الجميل: الرضى بلا توبيخ ولا حقد معه. وفى الأمثال القديمة كاد الحليم أن يكون نبياً، وروى أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: علمنى كلمات أعش بهن ولا تكثر على فأنسى، قال: لا تغضب.

واعلم أن الحلم أشرف الأخلاق وأحقها بذوى الألباب، لما فيه من راحة السر واجتلاب الحمد، وأحق الناس به السلطان، لأنه منصوب لإقامة أود الخلائق وممارسة أخلاقهم ولا يطيقون به فى حال سلمهم، وإنما يغشون بابه حين تنازعهم وخصوماتهم وشرورهم وتكدّر نفوسهم وضيق أخلاقهم، فإن لم يكن معه حلم يرد به بوادرهم، وإلا وقع تحت حمل ثقيل.

---

(١) سورة هود، الآية ٧٥.

(٢) سورة الحجر، الآية ٨٥.

وكان أنوشروان ذا حلم وأناة وكان يقول فى خصلتان لولا إنهما ظاهرتان عند الرعية لضقت بهما ذرعاً، يعنى الحلم والأناة.

ويروى أن يحيى بن زكريا لقى عيسى بن مريم عليه السلام فقال: يا روح الله أخبرنى بأشد الأشياء فى الدارين، قال: غضب الله تعالى، قال: يا روح الله وما ينجينى من غضب الله تعالى؟ قال: ترك الغضب، قال: يا روح الله كيف بدء الغضب؟، قال: التعزز والتكبر والفخر على الناس.

وفى الحديث عن النبى ﷺ قال: وجبت محبة الله على من غضب فحلم.

والذى بحلمه تضرب الأمثال فى هذا الباب قصة إسحاق، قال له إبراهيم: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [1]. ثم تله للجبين وأمر على حلقه السكين فلم يقل إلا خيراً، فقال الله: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴾ [2].

وفى الأخبار يقول إبليس لعنه الله: إن الحديد من الرجال لم نيأس منه وإن كان يحيى الموتى بدعائه لأنه تأتى عليه ساعة فيحتد فيها، فيصير [إبليس] منه إلى ما يريد.

---

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

(٢) سورة الصافات، الآية ١٠١.

ويروى أن جعفر بن محمد دخل على الرشيد وقد استخفه الغضب فقال له: يا أمير المؤمنين إنك إنما تغضب لله تعالى فلا تغضب له بأكثر من غضبه لنفسه، واعلم أرشدك الله تعالى إن هذه الكلمة لا قيمة لها والله يعلم حيث يجعل رسالته فهي أفخمها وأجل قدرها وأعظم شأنها، لأنك إذا كنت أيها السلطان إنما تتصرف في ملك الله تعالى بأمر الله تعالى فالله تعالى قد حدد حدوداً وشرع شرائع وأقام فرائض وسنناً، ونهى عن حدود ورسوم ثم قدر في كل خصلة عند مخالفته حدًا محدودًا ونهى أن يتجاوز ذلك الحد، فلا تقتل من استحق القطع والحبس والأدب والحد، ولا تقطع من استحق الأدب، ولا تقتل من استحق القطع والأدب، ولا تحبس غير من استوجب الحبس.

وكان الخلفاء يؤدبون الناس على قدر منازلهم فمن عثر من ذوى المروءات أقيلت عثرته ولم يقابل بشيء لقول النبي ﷺ: " أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم". ومن سواهم كان يقابل على قدر منزلته وهفوته فكان يقام قائماً في مجلس يقعد فيه نظراؤه فتكون هذه عقوبته، وآخر يشق جيبه وآخر تنزع عمامته من رأسه، وآخر يكلم بالكلام الذى فيه بعض الغلظة.

قال الشعبي: كانت العصاة في زمن عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم إذا أخذ الرجل منهم شعرة نزعت عمامته وطيف به في المسجد على قومه وقيل: هذا رجل أخذ شعرة. فلما ولى زياد ضربهم ونزع

عمائمهم. فلما ولى مصعب بن الزبير حلق، مع الضرب، رؤوسهم. فلما ولى بشر ابن مروان أقامهم على الكراسي ثم مدت أيديهم وسمرها بمسامير ثم نزع الكرسي من تحت أرجلهم حتى تخرم أيديهم فمن ميت ومن حي. فلما ولى الرجل المعروف بالحجاج قال: كل هؤلاء يلعب فمن يؤخذ بيعرة ضربت عنقه.

وقال أرسطاطاليس: النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان والنفس الشريفة يؤثر فيها يسير الكلام. وقد قيل:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام[1]

واعلم أن من تجاوز في العقوبة فوق ما حدد الله تعالى فيها، شارك المجرم في الذنب واستوجب ما استوجبه المجرم من العقوبة وتبين في الآخرة إنه إنما يعاقب للهوى إذا قضى [فاستحق] غضب الله تعالى.

وفي كتاب سليمان بن داود عليه السلام القاهر لنفسه أشد ممن يفتح وحده، وصدق نبي الله فإن السلطان يفتتح المدينة ويقيم أهلها ويغلب جنودها وحماتها ويقتل أبطالها ثم تغلبه شهوته ويبقى أسيراً في ذل هواه قد قهرته قينة بطنبورها أو قدح خمر يذهب بعقله.

وقال أكثم بن صيفي: الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندم.

---

(١) البيت للمتنبي.

وسأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كبيراً من كبراء الفرس عن أحمد ملوكهم عندهم فقال: لأردشير فضل السبق غير أن أحمدهم سيرة أنو شروان، قال: فأي أخلاقه كان أغلب عليه؟ قال: الحلم والأناة، فقال علي: هما توأم نتيجتهما علو الهمة.

ومن محمود السيرة أن يعرف الناس من أخلاقك أنك لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي.

قال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب | وإن عظمت عليَّ منه الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة | شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف فضله | وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فإن قال صنت عن | إجابته نفسي وإن لام لائم

وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا | تفضلت أن الحلم بالفضل حاكم

وقال الأصمعي: سمعت اعرابياً يقول: أسرع الناس جواباً من لم يغضب. لا توقدن بين جنبيك جمرة الغضب وأردد إساءته بالحلم فإن شجرة النار إذا ألحت عليها الرياح تحاكت أغصانها فتشتعل ناراً وتحترق من أصولها.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ثلاثة من اجتمعن فيه فقد سعد. من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل وإذا قدر عف وكف.

وسئل جعفر بن محمد رضي الله عنه عن الحلم فقال: وكيف يعرف فضل شيء لم يُر كماله وإلا فاحذره.

وكان سلم بن نوفل سيد بنى كنانة، فضربه رجل من قومه بسيفه، فأخذ فأتي به إليه، فقال: ما الذى فعلت أما خشيت انتقامى، قال: فلم سودناك إلا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الجانى وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه فى النفس والمال، فخلّ سبيله. فقال قائلهم:

تسوّد أقوام وليسوا بسادة بل السيد المعروف سلم بن نوفل

وقال رجل من كلب للحكم بن عوانة: إنما أنت عبد، فقال: والله لأعطينك عطية ما يعطيها العبيد فأعطاه مائة رأس من السبى.

ومن أمثال العرب: احلم تسد.

ويروى ان هشاماً غضب على رجل من أشراف الناس، فشتمه ووبخه الرجل فقال له: أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه، فاستحى هشام وقال له: اقتص، فقال: أنا إذاً سفيه مثلك، قال: فخذ عن ذاك عوضاً من المال، قال: ما كنت لأفعل، قال: فهبها

لله، قال: هي لله ثم لك. فنكس هشام رأسه، وقال: والله لا أعود لمثلها.

وقال الشاعر:

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا ... حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام

ويشتموا فترى الألوان مسفرة ... لا صفح ذل ولكن صفح إكرام

وقال آخر:

وجهل رددناه بفضل حلومنا ... ولو إننا شئنا رددناه بالجهل

رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة ... وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال هشام لخالد بن صفوان: صف لي الأحنف بن قيس، فقال: يا أمير المؤمنين إن شئت أخبرتك عنه بثلاث وإن شئت باثنتين وإن شئت بواحدة، قال أخبرني عنه بثلاث، قال كان لا يحرص ولا يجهل ولا يدفع الحق إذا نزل به، قال: أخبرني عنه باثنتين،قال: كان أعظم الناس سلطاناً على نفسه.

وقال أكثم بن صيفي: الغلبة والعز للحلم.

وقال الأحنف: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال، وصدق الأحنف لأن من حلم كان الناس أنصاره.

كما رُوى أن رجلاً أسرع فى شتم بعض الأدباء وهو ساكت، فحمى له بعض المارين فى الطريق وقال له: يرحمك الله ألا أنتصر لك، قال: لا، قال: ولِمَ؟، قال: لأنى وجدت الحلم أنصر لى من الرجال وهل حاميت إلا لحلمى.

وقال رجل لعمرو بن العاص: لأفرغن لك، قال: الآن وقعت فى الشغل.

وقال عبد الله بن عمران: أن رجلاً ممن كان قبلكم استضاف قوماً فأضافوه ولهم كلبة تنبح فقالت: والله لا أنبح ضيف أهلى الليلة فعوى جراؤها فى بطنها فبلغ ذلك نبياً لهم أو قيلاً من أقيالهم فقال: مثل هذا مثل أمة يكونون بعدكم يظهر سفهاؤها على حلمائها.

وقال الأحنف: إياكم ورأى الأوغاد، قالوا: وما رأى الأوغاد، قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً، وسئل الأحنف عن الحلم فقال: هو الذل يُصبر عليه ولست بحليم ولكنى صبور.

ويروى أن المهلب نازعه رجل من كبراء بنى تميم فأربى على المهلب والمهلب ساكت، فقيل له فى ذلك، قال: كنت إذا سبّنى استحيت من سخف الشباب ورغبت عن غلبة اللئام والسفلة وكان إذا سبّنى تهلل وجهه وشمخت نفسه فإن ظفر بفضل القحة ونبذ المرؤة وخلع ربقة الحياء وقلة الاكتراث، بسوء الثناء.

ومر المسيح عليه السلام على قوم من اليهود فقالوا له شراً، فقال لهم خيراً.

فقالوا له: هم يقولون شرًا وأنت تقول لهم خيرًا، فقال: كل ينفق مما عنده.

وقال أكثم بن صيفي: من حلم ساد ومن تفهم ازداد، وكُفر النعمة لؤم وصحبة الجاهل شؤم ولقاء الأعوان غنم والمباشرة يمن، ومن الفساد إضاعة الزاد.

وسب رجل الشعبي بقبائح نسبها إليه فقال الشعبي: إن كنت كاذباً يغفر الله لك وإن كنت صادقاً يغفر الله لي.

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأسبنك لتسمعن شيئاً يدخل معك في قبرك، فقال أبو بكر: معك والله يدخل لا معي.

وقال رجل للأحنف بن قيس: إن قلت لي كلمة لتسمعن عشراً، فقال له الأحنف: لكنك لو قلت لي عشراً لم تسمع مني واحدة. ويروى أن رجلاً سب الأحنف وهو يماشيه في الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال: يا هذا إن كان بقي معك شيئاً فقله ها هنا فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك.

وسب رجل بعض الحكماء فقال له الحكيم: لست أدخل في حرب الغالب فيها شر من المغلوب.

وقال لقيط بن زرارة:

فقل لبني معد فما لي وما لكم   ترقون مني ما استطعتم وأعتق

أغركم أني بأحسن شيمة   بصير وأني بالفواحش أخرق

وإن تلك قد سابيتني فقهرتني   هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذق

وقال رجل لأبي ذر رضي الله عنه: وأنت الذي نفاك معاوية من الشام، لو كان فيك خير ما نفاك، فقال يا ابن أخي إن ورائي عقبة كؤداً إن نجوت منها لم يضرني ما قلته وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت.

وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يُعرفون إلا عند ثلاث، لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه.

وسب رجل بعض الحكماء فأعرض عنه، فقال له: إياك أعني فقال له الحكيم: وعنك أعرض، وفي ذلك قيل:

قل ما بدا من زور ومن كذب   حلمي أصم وأذني غير صماء

وقيل يوماً للأحنف بن قيس: ما أحلمك؟، فقال: لست بحليم ولكني أتحالم، والله إني لأسمع الكلمة فأحم لها ثلاثاً ما يمنعني من جوابها إلا الخوف من أن أسمع شراً منها.

وقال الشاعر:

وليس يتم الحلم للمرء راضياً　إذا كان عند السخط لا يتحلم

كما لا يتم الجود للمرء موسراً　إذا كان عند العيش لا يتجشم

ويروى أن رجلاً سب جعفر بن محمد رضى الله عنه فقال: أما ما قلت مما هو فينا فإنا نستغفر الله منه وما قلت مما ليس فينا فإنا نكلك فيه إلى الله تعالى.

وقال بعض الحكماء: احذروا الغضب فرب غضب استحق الغضبان به غضب الله تعالى. وقال أكثم بن صيفى: لا يكون الرجل حليماً حتى يقول السفيه: إنه لضعيف مستذل، ولا يكون مخلصاً حتى يقول الأحمق: إنه مفسد.

ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت تعرض عن الجهل والخنا　أصبت حليماً أو أصابك جاهل

ووصف أعرابى رجلاً فقال: أحلم من فرخ طائر. وقال أعرابى: إن الغضب عدو العقل ولذلك يحول بين صاحبه وبين العقل والفهم.

وقال صعصعة بن صوحان: الغضب مقدحة العقل فربما أصلد وربما ارتد.

وقال أعرابى: إذا جاء الغضب تسلط العطب.

وكان ابن عون إذا غضب على أحد من أهله قال: سبحان الله بارك الله فيك.

وقال الأصمعي دفع أردشير إلى رجل كان يقوم على رأسه كتاباً وقال: إذا رأيتني قد اشتد غضبي فادفعه إلي، فكان فيه: أسكن فلست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً وتصير عن قريب للدود والتراب. وهذه السيرة أول من سنها ملك تُبّع، أمر أن يكتب في كتاب: أسكن فلست بإله، وقال لصاحبه: إذا غضبت فاعرضه علي، فكان إذا غضب عرضه عليه فإذا قرأه سكن غضبه.

وقال معاوية: أفضل ما أعطى الرجل الحلم فإذا ذُكّر ذكر وإذا أُعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا غضب كظم وإذا قدر عفا وإذا أساء استعفى وإذا وعد أنجز.

وفي الحكمة مكتوب: من أطاع الغضب حرم السلامة ومن عصى الحق غمره الذل. وقال بعض الحكماء كظم الغيظ حلم والحلم صبر والتشفي ضرب من الجزع. وقال آخر: أول الغضب جنون وآخره ندم. وقال بعض الحكماء: إذا غلب على الرجل أربع خصال فقد عطب، الرهبة والرغبة والشقوة والغضب.

وقيل لبعض الصالحين إن فلاناً يقع فيك بقول، فقال لأغيظن من أمره يغفر الله لي وله، قيل له: ومن أمره قال: الشيطان. قال رجل

لأخيه: إني مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكر أشياء رحمتك منها، فقال: فهل سمعتني أذكره بشيء، قال: لا، قال: فإياه فارحم.

وقال الفضيل: ثلاثة لا يلامون على الغضب: المريض والصائم والمسافر.

وقال الأحنف بن قيس: لقد تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقرى، إني لجالس معه فى فناء بيته وهو يحدثنا إذ جاءت جماعة يحملون قتيلاً ومعهم رجل مأسور فقيل: هذا ابنك قتله أخوك، فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ من منطقه ثم أنشد يقول:

أقول للنفس تأنيباً وتعزية إحدى يدى أصابتني ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

ثم قال لابنه: قم فأطلق عمك ووار أخاك وسق إلى أمه مائة من الإبل فإنها غريبة.

ومن أنبل بيت قالته العرب قول بعضهم:

فصح بالخير خرس بالخنا رجح الأحلام ذيالو الأزر

وقال غيره:

بأحلام عاد لا يخاف جليسهم إذا نطق العوراء عرب لسان

إذا حدثوا لم تخش سوء استماعهم وإن حدثـــوا أدوا بحـــسن بـــيان

وقال المسيح عليه السلام: ما حلم من لم يصبر عند الجهل، وما قوة من لم يرد الغضب، وما غنى لامرئ لم يتواضع لله.

وقيل للإسكندر: إن فلاناً وفلاناً ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما، قال: هما بعد العقوبة اعذر في ثلبي ونقصي.

ويروى أن جرير بن عبد الله بينما هو راكب قد أردف ابنه، إذ لقيه رجل فنال منه وجرير ساكت، فلما ولى قال له ابنه: لم سكت عنه؟ قال: يا بنى أفأوسع جرحى.

وقال بعض الحكماء: متى أشفى غيظى، حين أقدر فيقال: لو عفوت، أم حين أجهل فيقال: لو صبرت.

وسئل بعض أصحاب الأحنف: أكان الأحنف يغضب؟ قال: نعم لو لم يغضب ما بان حلمه، كان يغضبه الشيء فيتبين في وجهه اليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم.

ومن لم يغضب من الأشياء التي مثلها يغضب فقد من الفضائل الشجاعة والأنفة والحمية والدفاع والأخذ بالثأر والغيرة لأن هذه الخصال نتاج الغضب، فمن فقد الغضب فقَدَ أس الفضائل على ما سنذكره في باب الشجاعة إن شاء الله تعالى وعند فقد الشجاعة تكون

المهانة، ومن المهانة يكون سفساف الأخلاق ورذالة الطباع، فلا يبقى لسائر فضائله موقع. وكان يقال: من لا يغضب فليس بحليم لأن الحليم يعرف عند الغضب.

وكان الشعبي يقول: الجاهل خصم والحليم حاكم.

قال الشافعي رضي الله عنه من استغضب ولم يغضب فهو حمار ومن استُرضي ولم يرض فهو جبار.

وقد كان النبي ﷺ يغضب ولكنه إنما كان يغضب لا لنفسه بل عند انتهاك حرمة ربه.

واعلم أن الله تعالى ما مدح من لا يغضب وإنما مدح من يكظم فقال:﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [1]وقد أنشد النابغة الجعدي بحضرة النبي ﷺ:

فلا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلم ينكر النبي ﷺ قوله.

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا سافر استتبع سفيهاً ويقول: إنه يدفع شر السفهاء عنا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

واعلموا أرشدكم الله أن أحسن خصال الملوك وأجلها قدراً وهى حلية الأنبياء ولبسة الأصفياء والأولياء وأعمها على الرعايا نفعاً وأخلدها على مر الأيام ذكراً وأجلها فى المحافل والمجالس نشراً، وهى الفضيلة التى تعم سائر الفضائل وتكمل بها سائر المحاسن وهى الحلم، وها أنا أتلو عليك من ذلك ما يقضى فيه بالعجب: هذه دولة آل العباس أولهم أبو العباس السفاح، إلى يومنا هذا لم يكن فيهم أحلم من المأمون، بلغ من حلمه أنه كان يقول: لو يعلم الناس مالى فى لذة العفو، ما تقربوا إلىّ إلا بالجرائم، فعم حلمه سائر خلفاء بنى العباس حتى صار يضرب المثل بحلمه وبهذه الخصلة تهيأ ملكه وقهر أخاه الأمين.

ومنها دولة بنى أمية أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى لم يكن فيهم أحلم من معاوية، لا جرم إن دانت له الدنيا وملك بها رقاب العرب والعجم، وصار حلمه يضرب به المثل ويقتدى به الخلق ويهتدى به العقلاء حتى حكى عنه أنه كان يقول: لو كان بينى وبين الناس خيط عنكبوت أو شعرة ما انقطعت، إذا جذبوا أرسلت وإذا أرسلوا جذبت.

وهذه دولة الفرس وكانت أعظم دول العالم وأشدها بأساً وأكثرها علوماً وحكماء، لم يكن فى أكاسرها أحلم من كسرى أنو شروان وصار يضرب بحلمه المثل وتطرز بسيرته الكتب والمصنفات، فيروى أن أمير

المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لقى كبيراً من كبراء الفرس فقال له: ما أحمد خصال ملوككم؟ فقال: السبق لأردشير وأحمدهم سيرة أنو شروان، فقال له على: وما كان أغلب خصاله عليه؟ قال: الحلم والأناة، قال على: هما توأمان نتيجتهما علو الهمة.

وبلغ من حلمه أنه كان يضيق صدره بحلمه فيقول: فىّ خصلتان لولا إنهما ظاهرتان عند الرعية لضقت بهما ذرعاً الحلم والأناة. فأعظم بخصلة، تعم منفعتها ويبقى على الدهر جمالها وتخلد فى العقلاء والعلماء والملوك والسوقة بهجتها وحسن مصادرها ومواردها، أن يتخذها الملوك شعاراً ودثاراً، وإنما قصدت الحكماء من الملوك خاصة، فأما سواهم من الرعية كالأحنف بن قيس ونظرائه فلا يحصون عدداً وكثرة.

١٠ ـ فى الجود والسخاء

وهذه الخصلة الجليل قدرها، العظيم موقعها، الشريف موردها ومصدرها وهى إحدى قواعد المملكة وأساسها وتاجها وجمالها، تعنو لها الوجوه وتذل لها الرقاب وتخضع لها الجبابرة وتُسترق بها الأحرار وتُستمال بها الأعداء وتستكثر بها الأولياء ويحسن بها الثناء ويملك بها القرباء والبعداء ويُسَوّد بها فى غير عشائرهم الغرباء.

وهذه الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمل والمتممات، وكم قد رأينا من كافر ترك دينه والتزم دين الإسلام ابتغاء عرض من الدنيا ناله، وكم قد سمعنا من مسلم مرتد فى أرض الشرك افتتاناً بيسير دونه نفسه، أن تكون جليلة القدر عظيمة الخطر وأحوج خلق الله تعالى إليها أفقرهم إلى عطف القلوب عليهم وصرف الوجوه إليهم الملوك والولاة.

واعلموا يا معشر من وسع الله عليه دنياه وأسبغ عليه آلاءه ونعماه أنه ليس فى الجنة لا، وحسبك بكلمة لا تدخل الجنة سقوطاً وضعة وإنما أسست الجنة على ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وهذه الخصلة أعني الكرم والجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد.

يوصف البارى تعالى بالجود ولا يوصف بالسخاء، كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل لعدم التوقيف.

وحقيقة الجود أن لا يصعب عليه البذل. ويقال: السخاء هو الرتبة الأولى ثم الجود ثم الإيثار فمن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضر فهو صاحب إيثار.

قال ذو النون[1]: بداءة السخاء أن تسخو نفسك بما في يديك ونهايته أن تسخو نفسك بما في أيدى الناس للناس وأن لا تبالى من أكل الدنيا.

تذاكر قوم من الزهاد عند رابعة العدوية[2] فجعلوا يذمون الدنيا ويكثرون من ذلك، فقالت رابعة: من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وأصل السخاء هو السماحة وأن يأتى ما يأتيه عن طيبة نفس، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخيًا إذا كان لا يستصعب العطاء وإن منع، ولهذا قال علماؤنا: إن الله تعالى لم يزل جواداً وإن لم يقع منه عطاء في الأزل، والعطاء فعل والفعل في الأزل مستحيل.

---

(١) ذو النون المصري، أبو الفيض من كبار الصوفية،المتوفى سنة ٢٣٥ هـ. انظر الكواكب الدرية للمناوى، بتحقيقنا ج ١/ ٤٠٠.

(٢) أم الخير بنت إسماعيل البصرية، المتوفاة سنة ٢٣٥هـ.

وقالت الحكماء: أيها الجامع لا تخدعن فالمأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو.

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

وقال أبو هريرة: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني جائع فأطعمني فبعث النبي ﷺ إلى أزواجه فقلن والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء، فقال النبي ﷺ: ما عند رسول الله ما يطعمك الليلة، ثم قال: من يضيف هذا هذه الليلة يرحمه الله تعالى؟، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فحمله إلى منزله وقال لأهله هذا ضيف النبي ﷺ فأكرميه ولا تدخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال: قومي فعلليهم عن قوتهم حتى يناموا ثم أسرجي وأبرزي فإذا أخذ الضيف يأكل قومي كأنك تصلحين السراج فاطفئيه، وتعالى نمضغ ألسنتنا لضيف النبي ﷺ، ففعلت وجعلا يمضغان ألسنتهما والضيف يظن أنهما يأكلان وباتا طاويين، فلما أصبحوا ونظر النبي ﷺ إليهما تبسم ثم قال: لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة ونزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وقال أنس: أهدى لبعض الصحابة رأس شاة مشوية وكان مجهوداً فوجّه به إلى جاره،فوجّه به الجار إلى أهل بيت آخر، فتداولته سبعة أبيات حتى عاد إلى الأول، فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

وقال حذيفة العدوى: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شئ من الماء وأنا أقول: إذا كان به رمق سقيته فإذا أنا به بين القتلى فقلت له: أسقيك؟ فأشار أى نعم، فإذا برجل يقول آه فأشار ابن عمى أن أنطلق إليه فإذا هو هشام بن العاص فقلت له أسقيك؟ فسمع آخر يقول آه فأشار هشام إلىّ انطلق إليه فجئته فإذا هو مات [ثم رجعت إلى هشام فوجدته قد مات ثم رجعت إلى ابن عمى فوجدته قد مات].

وروت عائشة رضى الله عنها قالت: قال النبى ﷺ السخى قريب من الله قريب من الناس بعيد عن النار، والبخيل بعيد عن الله بعيد من الناس بعيد من الجنة والجاهل السخى أحب على الله من العابد البخيل.

وروى أن النبى ﷺ قال: ابن آدم إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت.

واعلم أن السخاء على وجوه، سخاء فى الدنيا وسخاء فى الدين، فالسخاء فى الدنيا البذل والعطاء والإيثار وسماحة النفس.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) [وعلامته] ترك الادخار وبغض المال وتعاهد الإخوان [مسروراً] قلبه بذلك. والسخاء فى الدين أن تسخو نفسك أن

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

تتلفها لله تعالى وتريق دمك في الله سماحة من غير كراهية لا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً، وإن كان غير مستغن عن الثواب لأن الغالب على قلبه حسن كمال السخاء، بترك الاختيار على الله تعالى حتى يفعل الله بك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك.

وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من السيد؟ قال: الجواد إذا سُئل، الحكيم إذا استعجل، الكريم المجالسة لمن جالسه الحسن الأخلاق لمن جاوره.

قال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأكرمهم طباعاً وأجلهم في النفوس قدراً، فسكت القوم، فقال فتى: أبيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس في فضله، قال: صدقت.

وقال الحسن: باع طلحة بن عثمان[1] رضي الله عنه أرضاً بسبعمائة ألف فلما جاءه المال قال: إن رجلاً تبيت هذه عنده لا يدري ما يطرقه لغرير بالله ثم جعله صرراً وجعل رسوله يختلف إلى الناس حتى قسمها، وما أضاء الصباح وعنده منها درهم.

وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة لأنه إن كان كريماً أصون عرضه وإن كان لئيماً أصون منه عرضي.

وكان مورق العجلي يتلطف في إدخال الرفق على إخوانه فيضع

---

(١) طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي، قتل يوم الجمل سنة ٣٦ وكان عمره ٦٠ سنة.

عندهم ألف درهم ويقول أمسكوها حتى أعود إليكم ثم يرسل إليهم أنتم منها في حل.

وقال العتبي: أعطى الحكم بن عبد المطلب جميع ما يملكه، فلما فقد ما عنده ركب فرسه وأخذ رمحه يريد الغزو ومات بمنبج، فأخبرني رجل من أهل منبج قال: قدم علينا الحكم وهو مملق لا شيء معه فأغنانا قلت: فكيف أغناكم وهو مملق؟، قال: ما أغنانا بمال ولكنه علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض فاستغنينا.

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله، جاءه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال: هذا حائطي بمكان كذا وكذا وقد أعطيت به ستمائة ألف درهم، فإن شئت فالمال وإن شئت فالحائط.

ويروى أن رجلاً بعث إلى جبلة بجارية فوافته بين أصحابه، فقال: قبيح أن آخذها لنفسي وأنتم حضور وأكره أن أخص بها واحداً منكم وكلكم له حق وحرمة وهذه لا تحتمل القسمة، وكانوا ثمانين رجلاً فأمر لكل واحد منهم بجارية أو وصيف.

وقيل بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟، قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها فقالت: إنه نزل بك ضيفان، فجاء بناقة فنحرها وقال: شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال: شأنكم فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا يسيراً فقال: إني لا أطعم أضيافي الغاب، فأقمنا عنده أياماً والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة:

اعتذرى لنا إليه ومضينا فلما متع النهار فإذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن قراى ثم لحقنا وقال: لتأخذوها وإلا طعنتكم برمحى، فأخذناها وانصرف.

قال ميمون بن مهران: من طلب مراضاة الإخوان بلا شيء فليصحب أهل القبور. وقال ابن عباس: لا يتم المعروف إلا بثلاث تعجيله وتصغيره وستره، فإذا عجله فقد هناه وإذا صغره فقد عظمه وإذا ستره فقد تممه. وقال الحسن: كان أحدهما يشق إزاره لأخيه نصفين.وقال المغيرة: فى كل شىء سرف إلا فى المعروف. وقيل للحسن بن سهل: لا خير فى السرف فقال: لا سرف فى الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى، ونظمه محمد بن حازم فقال:

لا الفقر عار ولا كسب الغنى شرف ولا سخاء فى طاعة سرف

ما مالك إلا شيئاً تقدمه وكل شئ أخرته تلف

وأما طلحة بن عبيد الله الخزاعى المعروف بطلحة الطلحات إنما سمى بهذا الاسم لأنه كان عظيم البذل فى كل وجه، وكان يبتاع الرقاب فيعتقها وكان كل معتق يولد له ابن ذكر سماه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل كل يسمى طلحة فسمى طلحة الطلحات، ثم ولى سجستان وفيه يقول الشاعر:

نضر الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

وبلغه أن معلمه فى الكتاب بالحجاز قد قعد به الدهر فأرسل إليه

مع غلامه مائة ألف وقال: سلمها إليه، فإن يكن مات وله ولد فادفعها إلى ولده، وإن لم يكن له ولد ففرقها على قومه، فوافاه الرسول فوجده قد مات ولم يعقب ففرقها على قومه.

وقال زيد بن أسلم وكان من الخاشعين : يا ابن آدم أمرك الله أن تكون كريماً وتدخل الجنة ونهاك أن تكون لئيماً وتدخل النار.

وقال حكيم بن حزام[1]: ما أصبحت قط صباحاً لم أر ببابي طالب حاجة إلا عددتها مصيبة أرجو ثوابها.

وقال أبو علي الثقفي: المعروف كنز لا يعدم من بر ولا فاجر وكان الزبير من أجود الناس وأشجعهم، ولما مات وجد عليه مائتا ألف دينار.

ووجد مكتوباً على حجر: انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل على نفسك هم ما لا يأتيك واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وروى مالك في الموطأ: أن مسكينة سألت عائشة وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف فقالت لمولاة لها: أعطيها إياه، فقالت ليس

---

(١) ابن خويلد بن أسد بن كلاب القرشي، عاش مائة وعشرين سنة، انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٠.

لك ما تفطرين عليه فقالت: اعطيها إياه ففعلت فلما أمست أهدى لها أهل بيت شاة وكفنها يعني ملفوفة برغفان، فقالت عائشة: كلي هذا خير من قرصك.

وقال عبد الله بن عمر: ما كان أحدنا على عهد رسول الله ﷺ يحسب أن له في الفضل شيئاً.

وقال الحسن: كنا نعد البخيل من يقرض أخاه الدرهم.

ومن عجائب ما روى فى الآثار ما ذكره أبو محمد الأزدى قال: لما احترق المسجد بمصر ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه، فأحرقوا خاناً لهم فقبض السلطان جماعة من الذين أحرقوا الخان وكتب رقاعاً فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد ونثرها عليهم، فمن وقعت عليه رقعة فعل له ما فيها، فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالى لولا أم لى، وكان بجانبه بعض الفتيان فقال له أحدهم: فى رقعتى الجلد وليست لى أم فادفع لى رقعتك وخذ رقعتى ففعلا. فقتل ذلك وتخلص هذا.

١١ ـ فى كتمان السر

قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ يَبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾[١] فلما أفشى يوسف رؤياه لمشهد امرأة يعقوب أخبرت، فحل به ما حل.

وفى الحديث: استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود.

واعلم أن كتمان السر من الخصال المحمودة فى جميع الخلق، ومن اللوازم فى حقوق الملوك ومن الفرائض الواجبة على الوزراء وجلساء الملوك والأتباع.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: سرك أسيرك، فإن تكلمت به صرت أسيره. وأنشدوا:

أسيرك سرك إن صنته   وأنت أسير له إن ظهر

واعلم أن أمناء الأسرار أشد تعذراً وأقل وجوداً من أمناء الأموال،

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥.

وحفظ الأموال أيسر من كتم الأسرار لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال وإحراز الأسرار بارزة يدفعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق، وعبء الأسرار أثقل من عبء الأموال، وإن الرجل ليستقل بالحمل الثقيل يحمل ويمشي به ولا يستطيع كتم السر، وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه بحمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه وسكن جأشه فكأنما ألقى عن نفسه جبلاً.

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره.

ومن عجيب الأمور أن أعلاق الدنيا كلما كثر خزانها كان أوثق لها إلا السر فإنه كلما كثر خزانه كان أضيع له، فكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من بلوغ مأربه ولو كتمه أمن من سطواته. قال أنو شروان: من حسن سره فله بتحصيله خصلتان: الظفر بحاجته والسلامة من السطوات.

وقال بعض الحكماء: سرك من دمك فلا تجره في غير أوداجك، فإذا تكلمت به فقد أرقته.

وكان لعثمان رضي الله عنه كتاب اسمه حُمران، فاشتكى عثمان، فقال: أكتم العهد بعدي لعبد الرحمن بن عوف، فقال حُمران لعبد الرحمن: البشرى، فقال له عبد الرحمن البشرى بماذا فأخبره الخبر، فانطلق عبد الرحمن فأخبره عثمان، فقال عثمان: أعاهد الله ألا يساكنني حمران أبداً ونفاه إلى البصرة، فلم يزل بها حتى قتل عثمان.

واعلم أن كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها فلا خير في إنسان لا يمسك سره. ويروى أن رجلاً أودع سره عند صديق فقال له: أفهمت، قال: بل جهلت، قال: أحفظت، قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ فقال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر. وقال الشاعر:

لو قدرت على كتمان ما اشتملت منى الضلوع على الأسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره إذ كنت من نشرها يوماً على خطر

ومن أحسن ما سمعته في كتمان السر ما انشدنيه بعض فقهاء البصريين بالبصرة فقال:

ولها سرائر في الضمير طويتها نسى الضمير بأنها في طيه

وفي معناه:

ومستودعي سرًا كتمت مكانه على الحس خوفاً أن ينم به الحس

وخفت عليه من هوى النفس شهره فأودعته في حيث لا تبلغ النفس

أسرّ معاوية إلى عثمان بن عنبسة حديثًا، قال ابن عنبسة: فقلت لأبي: إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثاً به، قال: لا، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ومن أظهره كان الخيار عليه فلا تجعل نفسك مملوكاً بعد إن كنت مالكاً، قلت: أفيدخل هذا بين الرجل وابنه، قال: لا يا بني ولكن أكره أن تزلل لسانك بإفشاء السر، قال: فحدثت به معاوية، قال أعتقك أخي من رق الخطأ.

وقيل لبعض الحكماء: ما أصعب الأشياء على الإنسان، قال: أن يعرف سره ويكتم سره.

وقال قيس بن الخطيم:

أجود بمكنون التلاد وإنني ... بسرك عمن سألني لضنين

إذا جاوز الاثنين سر فإنه ... يبث وتكثير الوشاة قمين

وإن ضيع الأقوام سراً فإنني ... كتوم لأسرار العشير أمين

يكون له عندي إذا ما ضمنته ... مكان بسود الفؤاد مكين

قلت: الناس يقولون أراد بالإثنين المودِع والمودَع، ولا يبعد أن يريد به الشفتين. وكان يقال: أصبر الناس من صبر على كتمان سره فلم يبده لصديقه فيوشك أن يصير عدواً.

وقد رُوى في الحديث عن النبي ﷺ قال: إذا حدث الرجلُ الرجلَ ثم التفت فهي أمانة. قلت: إذا كانت أمانة حرمت فيها الخيانة كالأمانات في الأموال.

وقال أبو بكر بن حزم: إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره.

وقال هشام بن عروة: ما من رجل ينتقص من أمانته إلا نقص إيمانه. وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعني سره ... لا ترج أن تسمعه مني

لم أجره قط على فكرتي ... كأنه لم يجر في أذني

وكان عمرو بن العاص يقول: ما أفشيت سرى إلى رجل فأفشاه على فلمته، إذ كان صدرى به أضيق.

وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر أحدهما بسره حتى يحدث به ثم يقول أكتمه عليّ. وفى منثور الحكم انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل به ولا جاهلاً فيخون. وانشدوا:

إذا ضاق صدر المرء من كتم سره   فصدر الذى استودعته السر أضيق

وفى منثور الحكم: من أفشى سره كثر عليه المتآمرون. وقال الشاعر:

سرك ما كان عند امرئٍ   وسر الثلاثة غير الخفى

وقال آخر:

ولا تنطق بسرك كل سر   إذا ما جاوز الاثنين فاش

وقال آخر:

تبوح بسرك ضيقا به   وتبغى لسرك من يكتم

وكتمانك السر فيما تخاف   وفيما تحاذره أحزم

إذا ذاع سرك من مخبر   فأنت إذا لمته ألوم

وقال آخر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث   وأفشته الرجال فمن تلوم

إذا عاتبتُ من أفشى حديثى   وسرى عنده فأنا الملوم

وقال الحكيم: ما كتمته عن عدوك فلا تطلعن عليه صديقك، فإن لم يكن لك بد من إذاعته لقرينة تقتضيه من صديق مساهم أو استشارة ناصح مسالم، فمن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل ودين ونصح ومودة فإن هذه أمور تمنع من الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة ومن كملت فيه فهو عنقاء مغرب.

ولا تودع سرك عند من يستدعيه فإن طالب الوديعة خائن. قال صالح بن عبد القدوس: لا تذع سراً إلى طالبه فالطالب للسر مذيع.

وفى جملة إذا زال سرك عن عذبة لسانك فالإذاعة مستولية عليه، فإن أودعته قلب ناصح محب فاحتمال مرارة الكتمان على قلبك أسهل من التملك بتمليك سرك غيرك.

واعلم إن إفشاء سر غيرك أقبح من إظهار سر نفسك لأنه يبوء بإحدى وصمتين إما الخيانة إن كان مؤمنا أو النميمة إن كان مستخبراً.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بنى كن جواداً بالمال فى مواضع الحق، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق فى وجوه البر والبخل بمكنون السر.

وكان يقال: صدور الأحرار قبور الأسرار.

قال الشاعر:

ألم تــر أن وشاة الرجال   لا يتركون أديماً صحيحا

فلا تفش سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحاً

وقال غيره:

ما كل مكتوم يباح به إحذر لسانك من جوالبه

فمرارة الكتمان أعذب من بث يحاذر من عواقبه

ليس الهوى ما كنت تعرفه أيام تلعب في جوانبه

هذا هوى لو فصحت به ضحك الحسام إلى مضاربه

١٢ ـ فى بيان السيرة التى يصلح عليها الأمير والمأمور ويستريح بها الرئيس والمرؤوس مستخرجة من القرآن العظيم

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [١] فأثبت الله تعالى المماثلة بيننا وبين ساير البهائم، ومعلوم أنهم لا يماثلوننا فى خلقنا وأشكالنا ولا فى عقولنا وساير ما تدركه العين منا ومنهم، فتبقى المماثلة فى الأخلاق فلا أحد من الخلق إلا وفيه خُلق من أخلاق البهائم ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة، فإذا رأيت من الإنسان خُلقاً خارجاً عن الاعتدال فأبصر ما يماثل ذلك الخلق من خلق ساير الحيوان فألحقه به وعامله كما كنت تعامله، فحينئذ تستريح من منازعتهم ويستريحون منك.

فإذا رأيت الرجل الجاهل فى خلايقه، الغليظ فى طباعه القوى فى بدنه، الذى لا يؤمن طغيانه وإفراطه فألحقه بعالم النمور والعرب تقول أجهل من نمر، وإذا رأيت النمر بعدت عنه ولم تخاصمه ولم تسابه، فاسلك بالرجل كذلك.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٨.

وإذا رأيت الرجل الغالب على أخلاقه السرقة خفية والنقب ليلاً على وجه الاستمرار قلنا هذا يماثل الجرذ، فدع ملاحاته ومخاصمته كما تدع سباب الجرذ إذا أفسد رحلك، ثم احفظ رحلك بما يصلح له.

وإذا رأيت إنساناً هجاماً على أعراض الناس وثلبهم فقد يماثل أخلاق الكلاب فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفو ويبتدى بالأذية من لا يؤذيه، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح عليك ألست تذهب فى شأنك وتتركه ولا تخاصمه ولا تسبه، فافعل بمن يهتضم عرضك مثل ذلك.

وإذا رأيت إنساناً قد جبل على الخلاف، إن قلت: لا، قال: نعم، أو قلت: نعم، قال: لا، فألحقه بعالم الحمير فإن الحمار إن أدنيته بعد وإن أبعدته قرب وأنت تستمتع بالحمار ولا تسبه ولا تفارقه، فاستمتع أيضاً بهذا الإنسان ولا تفارقه ولا تسبه.

وإذا رأيت رجلاً يذكر من عثرات الناس وسقطاتهم فمثله فى الآدميين كمثل الذباب فى عالم الطير، فإن الذبابة تقع على الجسم فتتحامى صحيحه وتطلب المواضع النغلة منه ذوات المدة والدم والنجاسة.

وإذا بليت بسلطان يهجم على الأموال فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد وليس إلا اهرب منه، كما قال النابغة: ولا قرار على زأر من الأسد.

وإذا بليت بإنسان كثير الروغان والمناخرة فألحقه بعالم الثعالب.

وإذا بليت بمن يمشى بالنمائم ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم ضربان وهى دويبة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة فشا بينهم ضربان فتفرقوا، وخاصية هذه الدويبة إذا حصلت وسط جماعة أن يتفرقوا، وكما إن جماعة إذا أقبلت بينهم هذه الدويبة طردوها ومنعوها الدخول بينهم كذلك ينبغى إخراج النمام من بين الجماعة فإن لم يفعلوا يوشك أن يفرق بينهم ويفسد قلوب بعضهم على بعض.

وإذا رأيت إنساناً لا يسمع العلم والحكمة وينفر من العلماء والحكماء ويألف سماع أخبار الدنيا وساير الخرافات وما يجرى فى مجالس العوام فألحقه بعالم الخنافس فإنه يعجبه أكل العذرات ويألف روائح النجاسات ولا تراه إلا ملابساً للأخيلة والرحاضات وينفر من روائح المسك والورد وإذا طرح عليه المسك والورد مات.

وإذا رأيت إنساناً إنما دأبه الدنيا لا يستحى من الوثوب عليها فألحقه بعالم الذئاب، كما قال فيه القائل:

ذئب تراه مصلياً فإذا مررت به ركع
يدعو وجل دعائه ما للفريسة ما تقع
عجل بها يا ذا العلى إن الفؤاد قد انصدع

واحترز منه كما تحترز من الذئب.

وإذا ابتليت بصحبة إنسان كذاب فاعلم أن الإنسان الكذاب كالميت فى الحكم لأنه لا يقبل له خبر كما لا خبر للميت، وكما

لا تصحب الموتى لا تصحب الكذاب، وقد قيل فى الأمثال كل شىء وصحبة الكذاب لا شىء ويجوز أن يلحق بعالم النعام فإنه يدفن جميع بيضه تحت الرمل ثم يترك واحدة على وجه الرمل وأخرى تحت وجه الرمل وسائر بيضه فى قعر الرمل فإذا رآه الغر أخذ تلك البيضة وانصرف أو يكشف عن وجه الرمل فيجد البيضة الأخرى فيظن أنه ليس ثم شىء آخر، والخبير بحيلة النعام إذا رأى البيضة لا يزال يحفر حتى يصل إلى حاجته لا يغتر بتلك البيضة، كذلك الكذاب إذا سمعت منه خبراً لا تصدق حتى تبلغ الغاية فى الكشف عنه.

وإذا رأيت الرجل إنما دأبه أن يصنع نفسه كما تصنع العروس لبعلها، يبيض ثيابه ويعدل عمامته ويتقى أن يمسه غيره وينظر فى عطفيه ويطرح القذى عن بزته، ليس له همه بين الجلساء إلا نظره إلى نفسه وإصلاح ما أثنى من ثيابه، فألحقه بعالم الطواويس الذى هذه صفته فإنه ينظر إلى نفسه ويتبختر فى مشيته ويفرش ذنبه فتتخذه الملوك استحساناً له.

وإذا ابتليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازى بعد المدة على السقطات فألحقه بعالم الجمال والعرب تقول أحقد من جمل، فتجنب قرب الجمل الحقود.

وإذا ابتليت بإنسان منافق يبطن خلاف ما يظهر فألحقه بعالم اليربوع وهو فأر يكون فى البرية يتخذ جحراً تحت الأرض يقال له

النفق وله فوهتان يدخل من إحداهما ويخرج من الأخرى ومنه اشتق اسم المنافق، فإذا هم بأخذه دخل جحره وخرج من الباب الآخر فيحفر الصياد خلفه فلا يظفر بشيء، كذلك حال المنافق لا يصح منه شيء اجتنب صحبة هذا الرجل. وعلى هذا النمط كن فى صحبة الناس فتستريح منهم وتريحهم منك، فلعمر الله ما استقامت لى صحبة الناس وسكنت نفسى واسترحت من مكايد أخلاقهم إلا من حيث سرت معهم بهذه السيرة.

وقال الرياحي: يا بنى رياح لا تحقروا صغيرًا تأخذون عنه، فإني أخذت من الثعلب روغانه ومن القرد مكايدته ومن السنور صرعه ومن الكلب صولته ومن ابن آوى حذره، ولقد تعلمت من القمر الليل ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين.

١٢ ـ فيما يجب على الرعية إذا جار السلطان

اعلم أرشدك الله أن الزمن وعاء لأهله ورأس الوعاء أطيب من أسفله، كما أن رأس الجرة أرق وأصفى من أسفلها، فلئن قلت إن الملوك فاعلم أن الرعية ليسوا كمن مضى من الرعية، ولست بأن تذم أميرك إذا رأيت آثار من مضى منهم فأولى من أن يذمك أميرك إذا نظر آثار من مضى من الرعية، فإذا جار السلطان فعليك الصبر وعليه الوزر.

روى البخارى عن عُبادة بن الصامت قال: بايعنا النبى ﷺ على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله (إلا أن ترون كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان).

ومنه قال ابن عباس: من كره من أمير شيئاً فليصبر عليه، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية. وفى رواية أخرى: من فارق الجماعة فمات إلا مات ميتة جاهلية.

قـال ابن مسعود: قال لنا النبى عليه السلام: إنكم سترون بعدى

أثره وأموراً تنكرونها، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله، قال: أدوا لهم حقهم واسألوا الله حقه.

وروى أبو داود في سننه أن النبي عليه السلام قال: سيأتيكم ركب مبغضون يطلبون منكم ما لا يجب عليكم، فإذا سألوا ذلك فأعطوهم ولا تسبوهم ولتدعوا لهم. وهذا حديث عظيم الموقع في هذا الباب فيدفع إليهم ما يطلبونه من الظلم، ولا ننازعهم فيه وتكف ألسنتنا عن سبهم.

يا عبد الله لا تجعل سلاحك على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله، فلا محنة فوق محنة إبراهيم عليه السلام لما جعلوه في كفة المنجنيق ليقذف به في نار الجحيم، قال: اللهم إنك تعلم إيماني بك وعداوة قومي فيك فانصرني عليهم واكفني كيدهم.

وقال مالك بن دينار رحمه الله: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ولا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم.

وفي بعض الكتب، ابن آدم تدعو على من ظلمك ويدعو عليك من ظلمته فإن شئت أجبناك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرت الأمر إلى يوم القيامة فيسعكم العفو.

وقال سليمان بن دواد عليه السلام: لا تجعل ملجأك في الدعاء المكأفاة ولكن الثقة بالله.

وروى أبو داود في السنن، قال: سرقت ملحفة لعائشة رضي الله عنها فجعلت تدعو فسمعها النبي ﷺ فقال: ألا تستحي، يعني ألا تخففي عنه، فنهانا عن الدعاء على الظالم كما ترى، فإذا قال المظلوم في دعائه: اللهم لا توفقه فقد دعا على نفسه وعلى ساير الرعية لأنه من قلة توفيقه ظلمك ولو كان موفقاً ما ظلمك، فإن استجيب دعائك فيه زاد ظلمه لك.

ومن الألفاظ المروية عن سلف هذه الأمة: لو كانت عندنا دعوة مستجابة ما جعلناها إلا في السلطان.

وقال الفضيل: لو ظفرت ببيت المال لأخذت من حلاله وصنعت منه أطيب الطعام ثم دعوت الصالحين وأهل الفضل من الأخيار والأبرار فإذا فرغوا قلت لهم تعالوا ندعوا ربنا أن يوفق ملوكنا وساير من يلي علينا وجعل إليه أمرنا.

ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عايشة بنت عثمان: وا أبتاه، فقال معاوية: يا ابنة أخي إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا نكثوا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا. ولأن تكوني ابنة أخي أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين.

وروي أن بعض العقلاء غصبه الولاة ضيعة، فاستعدى عليه إلى المنصور فقال: أصلحك الله، أذكر لك حاجتي أم أضرب قبلها مثلاً، قال أضرب قبلها مثلاً، قال: أصلحك الله، الصغير إذا نابه أمر يكرهه

فإنما يفر إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظنًّا منه أنه لا ناصر له فوقها فإذا ترعرع واشتد فأوذى كان فراره إلى أبيه لعلمه أن أباه أقوى من أمه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحزنه أمر شكا على الوالى لعلمه بأنه أقوى من سواه، فإذا ازداد عقله واشتدت شكيمته شكا إلى السلطان لعلمه بأنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكا إلى الله تعالى لعلمه بأنه أقوى من السلطان، وقد نزل بى نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك فإن أنصفتنى وإلا رفعت أمرها إلى الله تعالى فى الموسم فإنى متوجه إلى بيته وحرمه إذ ليس فوقك أحد إلا الله تعالى. قال: بل ننصفك وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته.

١٤ - فى أحكام أهل الذمة

روى عبد الرحمن بن غنم[١]، قال: كُتب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله، عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسهم أن لا نحدث فى مدايننا ولا حولها ديرًا ولا كنيسة ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان فيها فى خطط المسلمين فى ليل أو نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال، ولا نأوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى دين الإسلام إن أراد وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم فى شئ من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين، ولا نتكنى بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا

---

(١) عبد الرحمن بن غنم الأشعرى، المتوفى سنة ٧٨ هـ انظر أسد الغابة ٣/ ٤٨٧.

بالعربية، ولا نبيع الخمور ولا نجز مقادم رؤوسنا، ونلزم زينا حيث ما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا تظهر صلباننا وكتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ولا نرفع أصواتنا فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانينا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نطلع على منازلهم.

فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا عن شىء مما شرطنا لكم وضمناه على أنفسنا، فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

فكتب إليه عمر: أمض ما سألوه والحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على أنفسهم: ولا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

وروى نافع عن سالم[1] مولى عمر بن الخطاب أن عمر كتب إلى أهل الشام فى النصارى أن تقطع ركابهم وأن يركبوا على الأكف وأن يركبوا فى شق، وأن يلبسوا خلاف زى المسلمين ليعرفوا.

وروى أن بنى تغلب دخلوا على عمر بن العزيز فقالوا: يا أمير

---

(١) نافع مولى عبد الله بن عمر المتوفى سنة ١١٧ هـ أما سالم فهو ابن عبد الله ابن عمر.

المؤمنين إنا قوم من العرب أفرض لنا، قال: نصارى؟ قالوا نصارى، قال: ادعوا لى حجاماً ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزماً يحتزمونها وأمرهم أن لا يركبوا السرج ويركبوا الأكف من شق واحد.

ورُوى أن أمير المؤمنين جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم، وأذلهم وأقصاهم وخالف زيهم وزى المسلمين وجعل على أثوابهم مثالاً للشياطين لأنهم أهل ذلك، وقرّب منه أهل الحق وباعد عنه أهل الباطل والأهواء، فأحيى الله به الحق وأمات به أهل الباطل فهو يُذكر بذلك ويُترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر به الخطاب رضى الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشا فى دينهم ولا تحل الرشا. ولما استقدم عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعرى من البصرة وكان عاملاً لحساب، دخل على عمر وهو فى المسجد واستأذن لكاتبه وكان نصرانياً، فقال له عمر: قاتلك الله، وضرب بيده على فخذه، وليت ذمياً على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [1]، ألا اتخذت حنيفاً، فقال: يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله.

وكتب بعض العمال إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه إن العدو قد كثر وإن الجزية قد كثرت، فنستعين بالأعاجم، فكتب إليه عمر: إنهم

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥١.

أعداء الله وإنهم لنا غشيشة فانزلوهم حيث أنزلهم الله ولا تردوا إليهم شيئاً.

وقال عمر بن أسد: أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز إلى محمد ابن المبشر: أما بعد فإنه بلغني أن في عملك رجلاً يقال له حسان بن يزيد على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]، فإذا أتاك كتابي فادع حسان بن يزيد إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا ونحن منه وإن أبى فلا تستعن به ولا بأحد من غير أهل الإسلام على شيء من أعمال المسلمين. فقرأ الكتاب عليه فأسلم، وعلمه الطهارة والصلاة.

ولما خرج النبي ﷺ إلى بدر تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة، فقال له: إني أريد أن أتبعك وأصيب معك، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: ارجع فلن أستعين بمشرك، ثم لحقه عند الشجرة ففرح به أصحاب النبي عليه السلام، وكانت له قوة وجلد، قال: جئت معك لأتبعك وأصيب معك، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: فارجع فلن أستعين بمشرك، ثم لحقه على ظهر البيداء فقال له مثل ذلك، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم، فخرج به، وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ ويراق دمه، فكيف استعماله على رقاب المسلمين.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٧.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن خير فأجدر أن لا يكون في غيرهم خيراً.

فصل

ومتى نقض الذمي العهد بمخالفته لشيء من الشروط المأخوذة عليه ولم يرد إلى مأمنه، فالإمام فيه بالخيار بين القتل والاسترقاق.

قال العلماء، وقال أصحاب الشافعي: يلزمهم أن يتميزوا عن المسلمين في اللباس فإن لبسوا قلانس ميزوها عن المسلمين بالخرق ويشدون الزنانير في أوساطهم، ويكون في رقابهم خاتم رصاص أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمايم والطيلسان. أما المرأة فتشد الزنار تحت إزار وقيل الإزار وهو الأولى ويكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض. ولا يركبون الخيل ويركبون البغال والحمير بالأكف عرضاً ولا يركبون بالسروج، ولا يصدرون في المجالس ولا يُبدون بالسلام، ويلجأون إلى ضيق الطريق، ويمنعون أن يعلوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز بل يمنعون وإن تملكوا داراً عالية أقروا عليها. ويمنعون من إظهار المنكر والخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والإنجيل. ويمنعون من المقام في الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة.

ويجعل الإمام على طائفة منهم رجلاً يكتب أسماءهم وحلاهم ويستوفي ما يؤخذون به من جميع الشرائط، وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام الملة انتقض عهدهم. وإن زنى أحدهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عيناً للكفار ودل على عورة المسلمين أو فتن

مسلماً عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق، وإن ذكر الله ورسوله بما لا يجوز قيل ينتقض.

فإن فعل ما منع منه، مما لا ضرر فيه، كترك الغيار وإظهار الخمر وما أشبههما عزّر عليه، ومتى فعل ما يوجب نقض العهد رد إلى مأمنه في أحد القولين وقيل في الحين في القول الآخر.

فصل

وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فقيل: إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر إلى عثمان بن حنيف بالكوفة فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً وعلى من دونه أربعة وعشرين درهما وعلى من دونه اثني عشر درهماً وتلك بمحضر من الصحابة ولم يخلفه أحد، وكان الصرف اثني عشر درهماً بدينار، وهذا مذهب أبي حنيفة وابن حنبل وأحد قولي الشافعي وجعلوه كأنه حكم إمام فلا ينتقض. وقيل إنها مردودة إلى الإمام في الزيادة والنقصان وهو الأقيس، وقيل: إنها مقدرة الأقل دون الأكثر فيجوز للإمام أن يزيد على ما قدّره عمر ولا يجوز له أن ينقص منه، وقال بعضهم: يجوز أن يساوى بينهم من كل واحد دينار، وقال مالك: يؤخذ من الموسر أربعون درهماً ومن الفقير دينار أو عشرة دراهم، ويتخرج على مذهب في وجوب تقدير طرفيها قولان بناء على أن العشر المأخوذ منهم هل هو تقدير شرعي لا تجوز فيه الزيادة والنقصان، وعن مالك فيه روايتان. ولا جزية على النساء والصبيان والمماليك والمجانين.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن: سلام عليك، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدّة وجور من العمال

وسنن سيئة سنها عليهم عمّال السوء، فأحرز عليهم أرضهم ولا تحمل خراباً على عامر ولا عامر على خراب ولا تأخذ من الخراب إلا ما يطيقون ولا من العمر إلا وظيفة الخراج، إلا دون سبعة ليس لها شراء ولا أجور الضرابين ولا أداة الفضة ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، والواجب أن يؤخذ ما ضربه عمر ابن الخطاب وهو من كل جريب كرم عشرة دراهم ومن كل جريب نخل ثمانية دراهم ومن كل جريب رطبة أو شجرة ستة دراهم ومن كل جريب شعير درهمان.

فصل

فأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة لم تكن قبل الإسلام ومنع أن تحدث كنيسة، وأمر أن لا يظهر الصليب خارج كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه. وكان عروة ابن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين، وشدّد فى ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك فى دار الإسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة وهكذا قال الحسن البصرى قال: من السنة أن تهدم الكنايس التى فى الأمصار القديمة والحديثة ويمنع أهل الذمة من بناء ما خرب. قال الاصطخرى[1]: إن طينوا ظاهر الحايط منعوا وإن طينوا داخله الذى يليهم لم يمنعوا، ويمنعون أن يعلوا على المسلمين فى البناء وتجوز المساواة وقيل: لا تجوز.

---

(١) أبو سعيد الحسن بن أحمد الاصطخرى (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ)، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢/ ٧٤.

١٥ ـ فى معرفة حسن الخُلق

اعلموا أرشدكم لله أن هذا الباب مما غلط الخلق فيه وقلبوا القوس ركوة فعمدوا إلى أخلاق العامة وخلائق الغوغاء والدني وما يجرى بينهم إذا تلاقوا وتعاشروا من الإفراط فى مزج بعضهم بعضاً وتعاطيهم الكذب والتصنع والملق والمراثاة والمقايض عن الأمور التى يعسر إظهارها والانخراط فى سلك المزاح والمهاترة، فهذا وما أشبهه عندهم من حسن الخلق، وهو عندنا نقيض ما نص الله تعالى عليه ورسوله من حسن الخلق، فأول ذلك أن تعلم أنه لم تحتو الأرض على بشر أحسن خلقًا من محمد ﷺ، فكل من تخلق بأخلاق رسول الله ﷺ أو قاربها أو بعضها كان أحسن الناس خلقاً. وكل خلق بَعُد عن أخلاقه صلى الله عليه وسلم فليس من حسن الخلق وهذا فصل الخطاب فى هذا الباب لمن عقل، وإنما أوتى الناس فى هذا الباب واستحسنوا الأخلاق العامية واستخشنوا الأخلاق النبوية لجهلهم بأخلاق المصطفى ﷺ. وها أنا أتلو عليك من أخلاق الأنبياء والمرسلين والأصفياء والعلماء والصالحين ما نرجو أن ينفعنا الله وإياك به.

قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد رسول الله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]: فخص الله نبيه من كريم الطباع ومحاسن الأخلاق ومن الحيا والكرم والصفح وحسن العهد ما لم يؤته غيره، ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، وعن هذا قال الشيوخ إن الله سبحانه دعا الخلق إلى حسن الخلق ودعا نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى آله من حسن الخلق.

قال عبيد بن عمير: قلت لعائشة أم المؤمنين: صفي لي خلق رسول الله عليه السلام فقالت: أما تقرأ القرآن، كان خلقه القرآن، وحسبك بهذا القول منقبة للرسول عليه السلام وتعريف لك بحسن الخلق، وإذا كان خلق النبي ﷺ القرآن، فالقرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها وينهى عن كل نقيصة ورذيلة ويوضحها ويبينها.

وكذلك لما أنزل الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2] قال النبي ﷺ : ما هذا يا جبريل قال: إن الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، فهذا من حسن الخلق كما ترى، فانظر أين أخلاق العامة من هذا النمط وإن أحدهم ليقطع من فصله ويحرم من أعطاه ويظلم من سالمه ويغضب على البهيمة. وإنما اقتصرت على هذه الكلمات لأنها أصول الفضائل وينبوع المناقب في أخذ العفو وصلة القاطع والصفح عن

---

(١) سورة القلم، الآية ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

الظالم وإعطاء المانع، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الأرحام وصون اللسان وغض الطرف عن المحرمات، وفي تقوى الله تدخل جميع آداب الشرع فرضها ونفلها، وفي الإعراض، عن الجاهلين الصفح والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه نصًا وتبيينًا وصمتًا واعتباراً.

وروى أنس قال: قلت: يا رسول الله أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال: أحسنهم الأخلاق.

وروى أبو داود في السنن أن النبي عليه السلام قال: بعثت لأتمم محاسن الأخلاق.

واقتضى الحديث أن كل نبي مبعوث إلى أمته إنما بعث ليعلم الخلق حسن الخُلق وأن نبينا محمد ﷺ بعث ليتمم محاسن الأخلاق. إذاً فحسن الأخلاق امتثال الشرائع بأسرها.

وروى البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ لم يكن فاحشًا ولا متفحشاً وقال: وإن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً.

وكان النبي ﷺ في بعض أسفاره، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فجذبه أعرابي جذبة شديدة حتى أثرت حاشية الرداء في عنقه وقال له: يا محمد مُر لي من مال الله الذي أتاك فلست تأمر لي بمالك ولا بمال أبيك. فالتفت النبي عليه السلام وقال: مُروا له، ولم يكلمه كلمة.

وروى معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: حسّن خلقك يا معاذ ابن جبل.

واعلموا أن الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه تظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخلقه مشهور بخلقه، ألا ترى أن الله تعالى خص نبيه عليه السلام بما خص به من الفضائل ثم لم يثن عليه بشيء من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال: لا تخاصم، ولا تخاصَم من شدّة معرفته بالله، وقيل: لم يؤثر جفاء الخلق بعد معرفتك بالحق.

وقال المحاسبي[1]: كظم الغيظ إظهار الطلاقة والبشر، إلا لمبتدع أو فاجر، إلا أن يكون فاجراً إذا انبسطت إليه استحى وأقلع، والعفو عن الزالِّين إلا بأدب أو إقامة حد، وكف الأذى عن كل مسلم ومعاهد إلا لتغيير منكر أو أخذ مظلمة فهذا من أحسن الخلق، وقيل حسن الخلق أن لا تغيّر في الصف بجنبك.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الخلق الحسن؟ قال: من قيس ابن عاصم المنقري، قال: بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادم له بسفّود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له فمات فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله.

وكان ابن عمر إذا رأى واحداً من عبيده يحسن الصلاة يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه وكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له فكان يعتقهم، فقيل له في ذلك، فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له.

---

(١) الحارث المحاسبي والمتوفى سنة ٢٤٣.

وقال الفضيل: لو أن امرءاً أحسن بالإحسان كله، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين.

وكان المحاسبي يقول: فقدنا ثلاثة أشياء حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الأمانة وحسن الإخاء مع الوفاء.

وكان عبد الله بن محمد الرازى يقول: حسن الخلق استصغار ما منك واستعظام ما إليك.

وقال سهل: حسن الخلق أن لا تطمع فيما ليس لك وليس بهذه الصفة أحد غير الله. وقيل حسن الخلق تحمل أثقال الخلق.

وقال الحسن بن على عليهما السلام: عنوان الشرف حسن الخلق.

وقال الكرمانى: علامة حسن الخلق كف الأذى واحتمال المؤذى، ومثل حسن الخلق أن تكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً.

وقيل حسن الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق. حسن الخلق احتمال المكروه بحسن المداراة.

وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائى فقال: يا هذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة.

وفى الحديث عن النبى ﷺ: لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن تسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق.

ورُوى أن أبا عثمان اجتاز بسكة وقت الهاجرة فألقى عليه من فوق السطح طشت رماد فتغير أصحابه وبسطوا ألسنتهم أن يثب عليه النار فصولح على الرماد لم يجز أن يغضب.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: هل فرحت في الدنيا قط؟ قال: نعم مرتين إحداهما كنت قاعداً ذات يوم فجاء إنسان فبال عليّ والثانية كنت جالساً فجاء إنسان فصفعني.

وكان أويس القرني إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة وهو يقول: إن كان لابد فارموني بالحجارة الصغار كي لا تدموا ساقي فتمنعوني الصلاة.

ورُوي أن عليًا بن أبي طالب دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانية وثالثة فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام قال:نعم، قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، قال: امض فأنت حر لوجه الله. وهذا كما ترى قوة إلهية يفرغها الله على المصطفين من عباده وأهل الصفوة من أوليائه ألا ترى إلى قوله سبحانه لنبيه:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [1] جرّده من حقائق البشرية وألبسه من نعمة الربوبية حتى قوّاه على صحبتهم وصبر على تبليغ الرسالة إليهم مع الذي كان يقاسيه من أخلاقهم، مع كونه مستغرقاً باستيلاء الحق عليه يختص برحمته من يشاء.

وقال النبي ﷺ: المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، إنما سمي آدم لأنه ألف من الجواهر والألوان.

وقال عليه السلام لرجلين متباغضين: أدم الله بينكم، أي ألف بينكما، ومنه سمي الأدم المأكول لأنه يؤلف الطعام ويحسنه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

ومنه قول النبي ﷺ لرجل أراد أن يتزوج امرأة: انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما، أي يؤلف بينكما.

ورُوي أن معروف الكرخي نزل دجلة يتوضأ ووضع مصحفه وملحفته، فجاءت امرأة فأخذتها فتبعها وقال: يا أختي أنا معروف، لا بأس عليك ألك ابن يقرأ؟ قالت: لا، قال: فزوج؟ قالت: لا، قال: فهات المصحف وخذي الثوب.

ورُوي أن أبا ذر كان على حوض يسقي إبله فأسرع بعض الناس فانكسر الحوض فجلس ثم اضطجع، فقيل له في ذلك فقال: إن النبي عليه السلام أمرنا إذا غضب الرجل أن يجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع.

وقال علي بن أبي طالب: إنا لنصافح أكفاً نرى قطعها. وقال أبو ذر: إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم.

وقال الحارث بن قصي: يعجبني من الورى كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله.

وقال عروة بن الزبير: مكتوب في الحكمة بني لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك طلقاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحباً صالحاً يغتنم.

ورُوى أن إبراهيم بن أدهم خرج إلى بعض البرارى فاستقبله جندى فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فأوضحه فلما جاوزه قيل له: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان فجاء يعتذر إليه فقال: إنك لما ضربتنى سألت الله لك الجنة، فقال: لِمَ؟ قال: قد علمت أنى اؤجر على ذلك فلم أرد يكون نصيبى منك الخير ونصيبك منى الشر.

وحكى أن أبا عثمان الحيرى دعاه إنسان إلى ضيافة فلما بات وافى الدار، قال له: يا أستاذ ليس لى وجه دخولك وقد ندمت فانصرف، فرجع أبو عثمان فلما وافى منزله عاد إليه الرجل وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر وقال: احضر الساعة فقام أبو عثمان ومضى معه، فلما وافى داره قال: مثل ما قال فى الأولى وأخذ يعتذر ثم كذلك فعل فى الثالثة والرابعة وأبو عثمان ينصرف ويحضر، ثم قال له: يا أستاذ إنما أردت اختبارك والوقوف على أخلاقك وجعل يعتذر إليه، فقال أبو عثمان: لا تمدحنى على خلق تجد مثله فى الكلاب والكلب إذا دعى حضر وإذا زجر انزجر.

ورُوى أن بعض الفقراء نزل على جعفر بن حنظلة وكان جعفر يخدمه والفقير يقول: نعم الرجل أنت لو لم تكن يهودياً، فقال جعفر: عقيدتى لا تقدح فيما يحتاج إليه من الخدمة فسل لنفسك الشفاء ولى الهداية.

ورُوى أن أبا جعفر القمودى لقيه بعض الأجناد ومعه كلب للصيد فقال له: خذ هذا الكلب وقده خلفى فأبى، فضرب رأسه بالسوط

حتى أوجعه، فقال له بعض المارين: ويحك هذا أبو جعفر القمودى، فنزل عن فرسه وجعل يقبل يديه ويعتذر إليه، فقال له: أنت في حل.

قال إبراهيم بن الحسن سمعت أبا جعفر القمودى ليالى عدة، إذا فرغ من حزبه فى جوف الليل، يدعو ويقول: اللهم أغفر لصاحب الكلب وارحمه.

وقيل مكتوب فى الإنجيل: عبدى اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب.

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[1] أى كل من لقيته فقل له حسناً من القول.

وقال لقمان لابنه: ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة الحليم عند الغضب والشجاع فى الحرب والأخ عند الحاجة إليه.

وروى أن عبد الله الخياط كان له مجوسى يخيط له الثياب ويدفع له دراهم زيوفاً وكان عبد الله يأخذها، فجاء المجوسى يوماً بالدراهم فلم يجده فأعطاها لتلميذه فلم يقبلها فدفع له صحاحاً، فلما رجع عبد الله قال تلميذه: هذه دراهم المجوسي وذكر قصته، فقال عبد الله: بئس ما فعلت، إنه معاملى بهذه المعاملة منذ مدة وأنا أصبر عليه وألقيها فى البير لئلا يغتر بها غيرى.

وروى أن معاوية نظر إلى يزيد يضرب ابنه فقال له: أتضرب من لا يمتنع منك، لقد حالت القدرة بينى وبين أهل المراتب.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٣.

وقال بعضهم: أصل سوء الخلق الإعجاب، وهل يسوء خلق الرجل إلا من عجبه وتكبره لا يرى فوقه أحد ولا يعرف قدر نفسه فتداخله العزة.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [1] أي خلقك فحسّن.

وكان لبعض النساك شاة فرآها على ثلاث قوائم، فقال: من فعل هذا بها؟ فقال غلامه: أنا، قال: لِمَ؟ قال: لأغمك بها قال: بل لأغمن من أمرك بها، إذهب فأنت حر.

قال البخاري عن أبي هريرة: إن النبي عليه السلام قال: رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق فقال له: أتسرق؟ قال: لا والذي لا إله إلا هو، قال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: فساد الأخلاق بمعاشرة السفهاء.

وقيل: الخلق السيء يضيق قلب صاحبه لأنه لا يسع فيه غير مراده، كالمكان الضيق لا يسع فيه غير صاحبه. ويقال: من سوء خلقك أن يقع بصرك على سوء خلق غيرك.

وسئل النبي ﷺ عن التشاؤم فقال: سوء الخلق.

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قيل له ادع الله على المشركين فقال: إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً.

---

(1) سورة المدثر، الآية 4.

ولما وصى يعقوب أولاده قال لهم: احفظوا عنى خصلتين ما انتصفت من ظالم قط قولاً ولا فعلاً. ولا رأيت حسنة إلا أفشيتها ولا سيئة إلا سترتها، كذلك فافعلوا.

وقال ابن عمر: إذا سمعتمونى أقول لمملوك أخزاه الله فاشهدوا أنه حر.

ويقال: سيء الخلق هو الذى لا يملك نفسه عند الغضب، وقيل: أصل السيء الخلق مطالبة غيرك أن يوافقك دون أن تطلب نفسك بموافقة غيرك، وعلامة حسن الخلق أن تحتمل معاملة سيء الخلق تستتر به سوء الخُلق.

وقيل: العارف يعاتب نفسه ولا يعاتب خلقه، وعلامة من بينه وبين نفسه عتاب ألا يكون بينه وبين خلقه عتاب.

ورُوى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان فى حجره يتيم سيء الخُلق فمات فحزن عليه ابن عمر، فقيل له: إنك تجد غيره، قال: فمن لى بمثل سوء أخلاقه.

وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له: لم تمسك هذا الغلام؟ فقال: لأتعلم عليه الحلم.

وقيل فى قوله تعالى:﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (١) الظاهرة تسوية الخلق والباطنة حسن الخلق.

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

فإن قيل: أنس قد روى أن عيسى ويحيى بن زكريا التقيا فقال يحيى لعيسى: تلقاني ضاحكاً كأنك آمن، فقال له عيسى: وأنت تلقاني عابساً كأنك آيس، فأوحى الله تعالى إليه أن أحبكما عندي أبشكما لصاحبه، قلنا كذلك يستحب أن يكون المؤمن.

وليس إطلاق الوجه والتبسم في وجه أخيك منهياً عنه وإنما المكروه ما ذكرناه في أول الباب من الطلق والتصنع.

وفصل الخطاب في هذا الباب ما روى هند بن أبي هالة في صفة مجلس النبي ﷺ فقال: كان أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، ومعلوم أن من كان على رأسه طائر لا يبرح فإنه لا يتحرك ولا يتكلم ولا يطرف بعينه حذراً أن يفر الطائر.

وقال ابن المقفع: كان لي صديق من أعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه وكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو إليه مونه، ولا يُستخف له رأياً ولا بدناً، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقوم أبداً إلا على نفسه بمنفعته، كان أكثر دهره صامتًا فإذا قال بذ القائلين، وكان متضاعفاً مستضعفاً فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً، كان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً، فكان لا يلوم أحداً على ما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذره، كان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرؤ، ولا صاحباً إلا لمن يرجو عنده النصيحة لهما والعدو ولا يغفل عن الولي، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من

اهتمامه وحيلته وقوته. فاقف بهذه الأحوال فإن لم تطق فأخذ القليل خير من ترك الجميع.

وروى أن حكيماً سمع رجلاً يذم الزمان وأهله وأنه قد فسد الناس ولم يبق أحد يصحب فقال له: يا هذا أنت طلبت صاحباً تؤذيه ولا ينتصر وتنال منه فلا ينتصف وتأكل رحله ولا يرزؤك بشيء وتجفو عليه فيحلم فلم تنصف في الطلب فلم تجد حاجتك ولكن إن أردت صاحبًا يؤذيك فلا تنتصر ويجفوك فلا تنتقم ويأكل رحلك ولا تنال منه شيئاً وجدت أصحاباً وأخداناً وخلاناً وأنا أول من يصحبك.

فصل في الفرق بين المداهنة والمداراة

من دارى سلم ومن داهن أثم، وهذا باب اختلط على معظم الخلق فداهنوا وهم يحسبون أنهم يدارون، فالمداهنة منهي عنها والمداراة مأمور بها.

قال الله تعالى في المداهنة: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1].

وقال النبي ﷺ في المداراة: رأس العقل، بعد الإيمان بالله، التودد إلى الناس وأمرت بمداراة الناس كما أمرت بأداء الفرائض.

واعلم أنه [إن] سقمت المداراة صارت مداهنة، فالمداهنة أن تداري الناس على وجه يذهب فيه دينك، والمداراة مخالفتهم على وجه يسلم لك دينك، وذلك أن هذه الآية نزلت على النبي عليه السلام وقالت له

---

(١) سورة القلم، الآية ٩.

قريش: يا محمد أعبد آلهتنا سنة ونؤمن بك فأبى، قالوا: فشهر فأبى، قالوا: فساعة فأبى، قالوا: فاستلمها بيدك ونؤمن بك، فوقف النبى عليه السلام فى ذلك وطمع إن فعل أن يؤمنوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ وقيل له: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾[1].

ومثاله أن يقول للظالم أبقاك الله، ومن دعا للظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله، وهذا باب ينبغى لذى الدين حفظه، وقد رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض، فكان الفقيه بن الحصّار بقرطبة له جار نصرانى يقضى حوائجه وينفعه، وكان الفقيه يكثر أن يقول: أبقاك الله وتولاك، أقرّ الله عينك، يسرنى والله ما يسرك، جعل الله يومى قبل يومك لا يزيد قط عن هذه الكلمات فيبهج النصرانى بها ويسره، فعوتب الفقيه فى ذلك فقال: إنما أدعو بمعراض قد عرف الله تعالى ذلك من نيتى، أما قولى: أبقاك الله وتولاك فأريد أن يبقيه الله تعالى لغرم الجزية ويتولاه بالعذاب، وأما قولى: أقرّ الله عينك فأريد أن يقر حركتها بستر يعرض لها فلا تتحرك جفونها، وأما قولى: جعل الله يومى قبل يومك فأريد أن يجعل الله اليوم الذى أدخل فيه الجنة برحمته قبل اليوم الذى يدخله فيه النار بكفره، وأما قولى يسرنى ما يسرك فإن العافية تسرنى كما تسره.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٧٤ و ٧٥.

١٦ ـ باب الفرج بعد الشدّة

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [١] وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [٢] وقـال تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [٣].

وقال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ: أبشروا قد جاءكم البشر لن يغلب عسر يسرين.

وقال ابن مسعود : والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر، لن يغلب عسر يسيرين. ومعنى الآية أنه لما عرف العسر ونكّر اليسر، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرفاً ثم أعادته فهو هو وإذا نكرته ثم كررته فهما اثنان.

وقال بعضهم:

إن يكـن نالـك الـزمان بـبلوى ... عظمـت عـندها الخطـوب وجلّـت

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٨.
(٢) سورة النمل، الآية ٦٢.
(٣) سورة الشرح، الآية ٦.

وتلـــتها قـــوارع ناكـــبات   ســئمت دونهــا الحــياة وملّــت

فاصــطبر وانتظــر بلــوغ مــداها   فالـــرزايا إذا تـــوالت تـــولّت

وإذا أوهـــنت قـــواك وحلـــت   كــشفت عــنك جملــة فــتجلّت

وقال ابن عباس أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعها هناك ووضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء فقالت ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: الله أمرك بذلك؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إ ذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل البيت بوجهه ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه يقول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1] حتى بلغ يشكرون.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبى عليه السلام: فذلك سعى الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها، فسمعت أيضاً فقالت: قد سمعت أن عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفوم بعدما تغرف.

قال النبى عليه السلام: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال لو لم تغرف لكانت عيناً معيناً.

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله.

ومنها قصة الثلاثة الذين خلفوا، وذلك أن كعب بن مالك ومرارة ابن الربيع وهلال بن أمية تخلفوا عن غزوة تبوك ونهى النبى ﷺ عن كلامهم الثلاثة. قال كعب بن مالك فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لنا الأرض بما رحبت فما هى التى أعرف، وكنت أطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله فأسلم عليه فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا، حتى إذا طال ذلك علىّ من جفوة الناس تسورت جدار حايط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب

الناس إليّ، فسلمت عليه فوالله ما رد السلام. فلما تمت خمسون ليلة من
يوم نهى النبي عليه السلام عن كلامنا صليت صلاة الفجر، وأنا على
ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحالة التي ذكرها الله قد
ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، وما كان من شيء
أهم عليّ أن أموت فلا يصلي النبي عليه السلام أو يموت النبي عليه
السلام فأكون من الناس بتلك المنزلة لا يكلمني أحد ولا يصلي عليّ،
فأنزل الله تعالى توبتنا فسمعت صوت صارخ من أعلى الجبل يا كعب
بن مالك أبشر فخررت لله تعالى ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج،
فخلعت ثوبيّ على الصارخ ببشراه ووالله ما أملك غيرهما، ثم أتيت
النبي عليه السلام فسلمت عليه وهو يبرق وجهه من السرور وقال:
أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك فقلت: يا رسول الله إن من
توبتي أن أتخلع من مالي صدقة إلى الله رسوله فقال النبي عليه السلام:
أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.

ورُوي أن إبراهيم عليه السلام لما شبّ ودرج من موضع ربي فيه،
﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ
ٱلْأَفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ
يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً
قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
(٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ
أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ

فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1].

وكان آزر [2] يصنع أصناماً يعبدها قومه، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيكسرها ويذهب بها إلى نهر لهم فيصيبها فيه على رؤوسها ويقول لها اشربي استهزاءً بها، ففشا ذلك عندهم من غير أن يبلغ ذلك نمرود. فأول ما نادى قومه أن نظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، يعني من الغيظ عليهم وعلى أصنامهم، فظنوا أنه مطعون وكانوا يفرون من الطاعون إذا سمعوا به، فتولوا عنه مدبرين، فراغ إلى آلهتهم فدخل عليها وقد وضعوا لها طعاماً وشراباً، فقال: ما لكم لا تأكلون ما لكم لا تنطقون فأقبل عليها ضرباً باليمين فكسرها وقطع أيديها وأرجلها حتى جعلها جذاذاً وأراق طعامها وشرابها، وعمد إلى الفأس فعلقه بيد إلههم العظيم ثم خرج عنها وتركها. فلما رجع قومه من عيدهم دخلوا بيت أصنامهم فلما رأوا ما صنع بها راعهم ذلك وأعظموه وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، فقال بعضهم لبعض: سمعنا فتى يذكرهم يقال له: إبراهيم، سمعناه يسبها ويستهزئ بها، فقال نمرود: فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فلما أتى إبراهيم

---

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١.

(٢) أبو إبراهيم الخليل.

عليه السلام قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال: بل فعله كبيرهم هذا فسلوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون، إنا قد ظلمناه بما نسبنا إليه ثم قالوا، وقد عرفوا أنها لا تضر ولا تنفع: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال:أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. فقال له نمرود حين سمع ذلك منه: صف لي إلهك الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، قال إبراهيم: إن ربي الذي يحيي ويميت، قال نمرود: أنا أحيي وأميت، قال: كيف ذلك؟ قال: آخذ رجلين قد استوجبا القتل في حكمي فأقتل أحدهما فأكون قد أمته وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييته، فقال إبراهيم: إن كنت صادقاً فاحيي الذي قتلت بزعمك أو أخرج روحاً من جسد من غير أن تقتله إن كنت صادقاً، وإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت عند ذلك نمرود ولم يرد على إبراهيم جواباً وأمر به إلى السجن فلبث فيه سبع سنين وجعل يدعو أهل السجن إلى الله تعالى وإلى الإسلام حتى ظهر أمره وفشا وتبعه قوم كثير على دينه.فلما رأوا أن يحرقوا إبراهيم واجتمع رأيهم على ذلك بنوا حيزاً طول جداره ستون ذراعاً ووضعوه إلى سفح جبل منيف لا يرام ولا يرقى ويلطوا الجدار فلا يمشي فيه شيء إلا زلق عنه، وأذن مؤذن نمرود: أيها الناس احتطبوا لنار إبراهيم ولا يتخلفن عنها أنثى ولا ذكر ولا حر ولا عبد ولا شريف ولا وضيع ومن تخلف عن ذلك ألقي في تلك النار، فعملوا في ذلك أربعين ليلة حتى أن المرأة منهم تنذر ذلك على نفسها

إن رجع غايبها أو أفاق عليلها. حتى إذا كمل ذلك قذفوا فيه النار حتى أنه يسمع وهج النار على المسافة البعيدة. فلما بلغ ذلك وضع إبراهيم فى كفة المنجنيق.

وقال وهب بن منبه: بلغنى أن السماء والأرض والبحار وما فيها ضجوا إلى الله تعالى ضجة واحدة وقالوا: يا ربنا ليس فى أرضك أحد ممن يعبدك غيره فأذن لنا فى نصرته فأوحى الله تعالى إليهم: إن استغاث بكم انصروه وأغيثوها وإن دعانى فأنا وليه وناصره، فلما وضع فى كفة المنجنيق وقذفوه قال: حسبى الله ونعم الوكيل، اللهم إنك تعلم إيمانى بك وعداوة قومى فيك فانصرنى عليهم ونجنى من النار فأوحى الله تعالى إلى النار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم فأطاعت النار ربها، ولو لم يقل سلاماً لمات من شدة البرد، ولبث إبراهيم فى النار سبعة أيام وظن قومه أن قد أحترق ثم قال نمرود: انظروا ما فعل إبراهيم فإنى رأيت الليلة فى نومى أن جدار هذا الحيز قد تهدم وخرج إبراهيم يمشى، قال وذاب النحاس الذى سد به باب الحيز واحترق الجدار فصار رماداً، فاطلعوا على إبراهيم فرأوه صحيحاً سليماً وخرج الناس ينظرون إليه على تلك الحال، فلما رآهم خرج يمشى حتى قعد إلى أمه وهى فى الجمع وأقبلت سارة وهى أول من آمن به حتى جلست إليه فقالت: يا إبراهيم إنى آمنت بالذى جعل النار عليك برداً وسلاماً، قالت لها أم إبراهيم: احذرى القتل على نفسك، فقالت: إليك عنى فإنى لا أخاف شيئاً وقد آمنت برب إبراهيم، وحول إبراهيم جمع من الناس لا يحصى عددهم يأتمرون به ليجددوا له عذاباً فأرسل الله تعالى

ريحاً عاصفًا فسفت رماد تلك النار فى وجوههم وعيونهم ففروا عنه وقام إبراهيم داعياً إلى الله تعالى ومذكراً به.

وقال مجاهد وقتادة وغيرهم: إن نبى الله سليمان بن داود عليه السلام انطلق إلى الحمام ومعه جنى يقال له صخر، ولم يكن سليمان يدخل الخلاء بخاتمه، فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه فى البحر فالتقمته سمكة ونُزع ملك سليمان منه وألقى على الشيطان شَبَه سليمان فجلس على كرسيه وسُلط على ملك سليمان، غير نسائه، فجعل يقضى بين الناس والناس ينكرون قضاياه حتى قالوا: لقد فتن نبى الله سليمان . ومكث سليمان على ذلك أربعين يوماً ثم أقبل فى حاله تلك وهو جائع تائع حتى انتهى إلى صيادين فى البحر فاستطعم أحدهم من صيده وقال له: أنا سليمان، فقام إليه بعضهم فضربه بعصى فشجّ وجهه، قال: فجعل يغسل دمه على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم على ضربه إياه ثم أعطوا سليمان سمكتين مما قد تغير عندهم وتتن، ولم يشغله ما كان فيه من الضرب أن يقوم إلى شاطئ البحر فشق بطونها وغسلها فوجد خاتمه فى بطن إحدهما فأخذه فلبسه فردَّ الله عليه بهاءه وملكه وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان فجاؤوا يعتذرون.

وروى وهب بن منبه أن الله تعالى وهب لإبراهيم إسحاق فلما كان ابن سبع سنين أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن يذبحه وأن يجعله قرباناً، وكتم إبراهيم ذلك عن أمه وجميع الناس وأسرّه إلى خليل له يقال له العازر أول من آمن به من قومه يوم أحرق، فقال: إن الله رفع اسمك

في الناس على جميع أهل البلاد حتى كنت أرفعهم بلية ليرفعك الله بقدر ذلك في المنازل والفضائل وقد علمت أن الله تعالى لم يبليك بذلك ليفتنك ولا يضلك فلا تسوءن ظنك بالله وأعوذ بالله أن يكون ذلك حنقاً مني على الله تعالى أو سخطاً لحكمه الذي حكم على عباده ولكن هذا حسن الظن بالله، فإن عزم ربك على ذلك فكن عند أحسن علمه بك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فتعزى إبراهيم بقوله وأسند له رأيه وبصيرته، وانطلق بإسحاق فلما صعد الجبل ومعه السكين والحبل وأداوة القربان، فقال له إسحاق: يا أبه أرى معك أداة القربان ولا أرى قرباناً، قال إبراهيم: القربان يا بني بعين ربك ينظر إليه فإن شاء رحم أباك، فلم يفطن إسحاق فلما وافى رأس الجبل، فقال إبراهيم: يا بني إن الله أمرني أن أذبحك وأجعلك قرباناً يرفعك إليه ويتقبلك، فتهلل وجه إسحاق واستبشر فقال له ولده: لقد فجعتك يا بني بأمر ما فجع به والد ولده وإني لأرى من سرورك بذلك وشكرك لربك أمراً رجوت به العافية والفرج، فقال: يا أبه لم يكن شيء من الدنيا أحب إليّ من البر بك وبأمي وقد حرمنيه ربي، فإن أردت ذبحي فاشدد وثاقي فإني أخاف حين يفارقني عقلي وأجد ألم الحديد أن يتحرك مني عضو فيؤذيك وأنا أكره أن أختم بذلك عملي، فإذا فرغت من أمري فاقرئ أمي السلام وقل لها: لا تجزعي فقد أكرم الله لك ابنك في منكبيه إلى الكعبين ثم كبه لوجهه وكره أن يستقبل وجهه لكي لا تدركه له رحمة إذا هو يشحط، فأدخل يده من تحت حلقه فلما أراد أن يجز انقلب السكين ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك

نجزى المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم هذا فداء إبنك قد فداه الله لك به، فنظر إبراهيم فإذا بكبش قد لوى قرنه الأيمن على ساق شجرة فوجهه إبراهيم إلى القبلة، وقبلته يومئذ مكة. فذبحه إبراهيم وقصبه إسحاق، فلما فرغا منه وضعاه قرباناً فرفعه الله تعالى إليه وتقبله.

قال أبو هريرة: ولما سار يوسف إلى مصر واستُرِقّ بعد الحرية جزع جزعاً شديداً وجعل يبكى بالليل والنهار على أبويه وإخوته ووطنه وما ابتلى به من الرق والعبودية فأحيى له ليلة من الليالى يدعو ربه تعالى وكان من دعائه أنه قال: رب أخرجتنى من أحب البلاد إلىّ وفرقت بينى وبين أبوى وإخوتى ووطنى فاجعل لى فرجاً ومخرجاً من حيث لا أحتسب وحبب إلىّ البلاد التى أنا فيها وحبب إلىّ كل من يدخلها وحببنى إلى أهلها وحببهم إلىّ، ولا تمتنى حتى الدنيا والآخرة إنك سميع الدعاء. فأتى يوسف فى نومه فقيل له: إن الله قد استجاب لك دعاءك وأعطاك مناك وورثك هذه البلاد وسلطانها وجمع إليك أبوك وأخواتك وأهل بيتك فطب نفساً واعلم أن الله تعالى لا يخلف وعده. بدعاء يوسف صارت مصر محبوبة،يحبها من داخلها فلا يكاد يخرج منها.

قال قتادة: ما سكنها نبى قبله، ولما جمع الله له شمله وتكاملت النعم عليه اشتاق إلى لقاء ربه فقال:﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال ضيّق على يزيد بن أبى مسلم، فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبى مسلم إفريقية واستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبى مسلم وبيده عنقود عنب فقال له يزيد حين دنا منه: محمد بن زياد؟ قال: نعم، قال: أما الله لطال ما سألت الله أن يمكننى منك بغير عقد ولا عهد. فقال محمد: وأنا والله فطال ما سألت الله أن يجيرنى منك ويعيذنى. فقال يزيد: فوالله ما أجارك ولا أعاذك وإن سابقنى ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا آكل هذه الحبة حتى أقتلك، فأقام المؤذن الصلاة فوضع يزيد العنقود وتقدم ليصلى، وكان أهل إفريقية قد اجتمعوا على قتله، فلما ركع ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت. فسبحان من قتل الأمير وأحيى الأسير، سنّة الله التى قد خلت فى عباده طلوع الحياة من أشفار الموت وحضور الموت من معدن الحياة.

ويُروى أن سلطان صقلية أرق ليلة ومنع النوم فأرسل إلى قايد البحر وقال: أنفذ الآن مركباً إلى إفريقية يأتونى بأخبارها فعمّر القايد المركب وأرسله لحينه، فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه لم يبرح

---

(1) سورة يوسف، الآية ١٠١.

فقال به الملك: أليس قد فعلت ما أمرتك؟ قال: نعم امتثلت أمرك وأنفذت المركب ورجع بعد ساعة وسيحدثك مقدمه، فجاء مقدم المركب ومعه رجل، فقال: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت فى المركب فبينما أنا فى جوف الليل والبحارة يقذفون إذا أنا بصوت يقول: يا لله يا لله يا غياث المستغيثين يكررها مراراً فلما استقر صوته فى أسماعنا ناديناه مراراً: يا لبيك، يا لبيك وهو ينادى: يا لله يا غياث المستغيثين ونحن نجيبه: يا لبيك يا لبيك، وقذفنا بالمركب نحو الصوت فألفينا هذا الرجل غريقاً فى آخر رمق من الحياة فاستقيناه من البحر وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من إفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وما زلت أسبح حتى وجدت الموت، فلم أشعر بالغوث إلا من ناحيتكم. فسبحان من أسهر سلطاناً وأرّق جباراً فى قصره لغريق فى البحر وظلمة الوحشة، حتى استخرجه من تلك الظلمات ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الوحشة، لا إله إلا أنت سبحانك يا أرحم الراحمين.

وأخبرنى رجل كان إمام الجامع بمصر، قال: كنت بصقلية أيام فتن العدو فزحف إلينا فى البحر فى سفن تقارب ثلثمائة سفينة وأرست فى الساحل فرأينا أمراً مهولاً، وفينا الشيخ الصالح ابن السمنطارى[1] فلجأ الناس إليه واستجمعوا حوله يبتكرون وينتظرون الفرج على يديه، قال: فنظر إلى السماء حيناً ثم سجد وعفر خديه بالأرض يقلبها

---

(١) أبو بكر بن السمنطارى المغربى صاحب كتاب (دليل القاصدين).

يميناً وشمالاً، قال فوالله ما برحنا حتى هبت ريح مزقتها كل ممزق فلم يجتمع منها اثنان.

وأخبرني أبو القاسم بن هابل رحمه الله تعالى، قال: كنت في طريق الحجاز فعطش الناس في مفازة تبوك فنفذ الماء ولم يوجد إلا عند صاحب لي جمّال يبيعه بالدنانير بأرفع الأثمان، فجاء رجل كان موسوماً بالصلاح عليه قطعة نطع يحمل ركوة ومعه شيء من دقيق فتشفعني إلى الجمّال ليبيعه الماء بذلك، وكلمته فأبى عليّ ثم عاودته فأبى، فبسط الرجل النطع في الأرض ونثر عليه الدقيق ثم رمق السماء بطرفه وقال إلهي أنا أعبدك وهذا دقيقك وقد أبى أن يقبله ثم ضرب بيده في النطع وقال: وعزتك لا برحت حتى أشرب، قال: فوالله ما تفرقنا حتى نشأ السحاب فأمطر في الحين فشرب الماء ولم يبرح فكان كما قال النبي ﷺ: رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبر قسمه.

وأخبرني شيخ مسن ممن كان يصحب العلماء بالقيروان آية عظيمة وذلك أن رجلاً جاء بصبي وقد أسكت ولم يتكلم فدخل به إلى الفقيه أبي بكر بن عبد الرحمن وقال له إن ابني هذا قد أسكت منذ أيام فلم يتكلم فادع الله أن يفرج ما نزل به، قال: فدعا الشيخ ساعة ثم مسح وجهه فاستفاق الصبي فقال له: قل لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [فقال الصبي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله]، ثم التفت إلى الرجل وقال: أكتم عليّ هذه إلى الموت، ثم التفت إلى جاريته فقال: اكتمي هذا علي إلى الموت وأنت حرة لوجه الله تعالى، فلما كان يوم توفي

الشيخ أبو بكر فاجتمع الناس بجنازته وتكاثرت الأمم، فاستنصت الناس فسكتوا فقال: يا أهل القيروان اسمعوا قصتي مع هذا الشيخ وذكر الحديث كما نصصناه.

وحدثني هذا الشيخ قال: نزلت عندنا بالقيروان قصة لم يسمع في السالفين مثلها وذلك أن بعض الجزارين اضطجع كبشاً ليذبحه فتخبط بين يديه فأفلت منه وذهب فقام الجزار يطلبه وجعل يمشي إلى أن دخل خربة فإذا رجل مذبوح يشحط في دمه ففزع وخرج هارباً فإذا صاحب الشرطة والرجالة عندهم خبر القتيل وجعلوا يطلبون القاتل والمقتول فأصابوا الجزار وبيده السكين وهو ملوث بالدم والرجل مقتول بالخرابة فقبضوه وحملوه إلى السلطان فقال له السلطان: أنت قتلت الرجل؟ قال: نعم...

قال: فما زالوا يستنطقونه وهو يعترف اعترافاً لا إشكال فيه، فأمر السلطان بقتله فأخرج ليقتل واجتمعت الأمم لتبصر قتله، فلما هموا بقتله اندفع رجل من حلقة المجتمعين فقال لهم: يا قوم لا تقتلوه فأنا قاتل القتيل فقبض وحمل إلى السلطان فاعترف وقال: أنا قتلته، فقال له: قد كنت معافى، ما حملك على الاعتراف؟ قال: رأيت هذا الرجل يقتل ظلماً فكرهت أن ألقى الله تعالى بدم رجلين، فأمر به السلطان فقتل، ثم قال الرجل: أيها الرجل ما دعاك إلى الاعتراف بالقتل وأنت بريء؟ قال الرجل: فما حيلتي، رجل مقتول في الخرابة وأخذوني وأنا خارج من الخربة وبيدي سكين ملطخة بالدم فإن أنكرت من يقبلني وإن اعتذرت من يعذرني، فخلى سبيله وانصرف مكرماً.

ولما وزر فخر الملك بن نظام الملك لسنجار الملك، وكان لفخر الملك ابن عم يقال له شهاب الملك وكان يخاف منه على منزلته، فقال للملك سنجار: لا حياة لى معك إلا أن تقتل ابن عمى شهاب الملك فأبى سنجار فما زال يراجعه إلى أن أمر به فحبس فى بلد يقال لها مهق فكان والى ذلك البلد يكرمه لجلالته وجلالة أهل بيته وأخلى له داراً فى القلعة مشرفة.

ثم جعل فخر الملك يفسد قلب سنجار ويحمله على قتل شهاب الملك إلى أن أرسل سنجار إلى واليه بقتل شهاب الملك، فاستعظم الوالى قتله وأخره أياماً ثم لم يجد بداً من قتله فعزم على قتله فى يوم جمعة، فبينما شهاب الملك يتطلع من طاقات الدار إذا بفارس يركض فأوجس خيفة منه، فوصل الفارس وقال: مات فخر الملك فخلى شهاب الملك ثم وزر لسنجار مكان فخر الملك فسبحان الفعال لما يريد.

وأخبرنى أبو الفضل المعبّر بمصر قال: كان بمصر ملوك آل حمدان وكان الرئيس ناصر الدولة وكان يشكو وجع القولنج فأعيى الأطباء ولم يوجد له شفاء، ثم إن السلطان دس على قتله فأرصد له رجل ومعه خنجر فلما جاء فى بعض دهاليز القصر وثب عليه الرجل وضربه فجاءت الضربة أسفل خاصرته فأصاب الخنجر المعى الذى هو القولون فخرج ما فيه من الخلط ثم عافاه الله فصح وبرئ كأحسن ما كان.

ولما كنت بالإسكندرية نزلت سفن العدو بساحل مدينة برقة فأخذوا مركباً للمسلمين وقتلوا بعضهم، وأخذ رجل منهم وشد كتافه من خلفه، فلما نهبوا السفينة عمد إليه بعض الأعلاج فرفصه وألقاه فى البحر فطعنه برمح كان معه فلم يخطئ نصل الرمح فك الأكتاف فقطعه فانحلت يد الرجل فسبح فلحق بالشاطئ سليماً ووصل إلى الإسكندرية فى عافية.

وحدثنى بعض الشاميين أن رجلاً خبازاً بينما هو يخبز فى تنوره بمدينة دمشق إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش، قال: فاشترى منه وجعل يأكله بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشياً عليه فنظروا فإذا هو ميت فجعلوا يتربصون به ويحملون له الأطباء فيلمسون دلايله ومواضع الحياة فقضوا بأنه ميت فغسل وكفن وحمل إلى الجبانة، فهم خارجون به من باب المدينة استقبلهم رجل طبيب يقال له: اليبودى وكان طبيباً ماهراً حاذقاً بالطب فسمع الناس يلهجون بقصته فقال لهم: خلوه حتى أراه، قال: فحطوه وجعل يقلبه وينظر فى إمارات الحياة التى يعرفها ثم فتح فمه وسقاه شيئاً، أو قال: فحقنه فاندفع ما هنالك يسيل، وإذا الرجل قد فتح عينيه وتكلم وعاد كما كان إلى دكانه.

وكان رجل يمشى ببغداد فبينما هو فى الطريق إذا بدار قد وقعت عليه فخرت كالجبل العظيم، وإذا فى الحايط طاقة فما أخطأت رأسه فصارت كوماً وخرج من الطاقة سالماً.

وحدثنى أبو القاسم الحضرمى قال: كنت بأرض اليمن فى أرض المليحى فوشى بى إلى السلطان فأمر بقتلى فأخرجت وقدمت وبركنى

السياف وقال لي: مدّ رقبتك فمددت عنقي لقضاء الله تعالى فقال لي السياف: اشتد فقلت دونك يا هذا، فبينما نحن كذلك إذا بصائح من داخل القصر: لا تقتلوه لا تقتلوه.

١٧ ـ مشتمل على حكم منثورة وأحاديث مشهورة

اعلم أيها المريد أن الله يمتحن أنبياءه وأصفياءه بأعدائه ويضطر أولياءه وأحباءه إلى أعدائه رفعة وتقريباً إلى أنبيائه وتمحيصاً لهفوات أوليائه وذخيرة لهم عنده وزلفى لديه.

قال الله تعالى: تعزية لنبيه عليه السلام، لعظيم ما كان يلقاه من سطوة أعدائه:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [١] وقال سبحانه:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [٢]، يا محمد لا تستوحش منا ولا تتهمنا في سيرتنا فهذه سيرتنا فيمن نحبه ويحبنا. فالبلاء على وجهين أحدهما كفارة للذنب والآخر رفع درجة وتوقير آخر.

وكذلك كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل. والبلاء بلا آن بلاء رحمة لتضعيف درجة وتمحيص سيئة

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣١.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١١٢.

وبلوغ فضيلة وعلو منزلة، وبلاء عقوبة لانتهاك حرمة واقتراف معصية.

ولن تخلو المكاره أن تكون لحادث رحمة بلا رغبة عما أنعم الله به منها أو كسبية عن إضاعة فلا غنى عن زاجر عنها وواعظ في تنكبها، فلأي ذلك كان حلولها عظمت به المنة ووجبت به النعمة.

وكان جعفر بن محمد [1] إذا وقع في شيء يكرهه قال اللهم اجعله أدباً ولا تجعله غضباً.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: لو كان المؤمن في رأس جبل لقيض الله له منافقاً يؤذيه.

فيا من ضاق صدره وحرج قلبه وساء خلقه من عدو أقلقه وحاسد حسده طب نفساً وقر عيناً وأنعم عيشاً بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام لك بالإيمان ولعدوك بالنفاق بخ بخ إن علقتها، أما لك في الأنبياء أسوة، أما لك في الصالحين قدوة، فلو لم نلق الله من الحسنات إلا بما اقترفنا اختباراً للقينا الله تعالى فقراء من الحسنات ثقلاء من السيئات.

قال الناظم:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

قال بعض الحكماء: الذي رأينا ما نحب في ما نكره أكثر مما رأينا ما نحب فيما نحب.

---

(١) الإمام جعفر الصادق.

وقال علي رضي الله عنه: ما همني ذنب أمهلت بعده حتى أصلي ركعتين.

❊ ❊ ❊

السجون قبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء.

أسعد الناس من كان القضاء مساعداً له.

غلب على الكريم من بدر إليه.

الشماتة لؤم عوام الناس عدة لخواصهم.

مجيء القدر يسبق الحذر.

من سخر من شيء حاق به.

من عيّر بشيء بُلي به.

الناس نهب المصايب.

مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها.

أقل ما في طلب الحيلة الخروج من الاستكانة.

جاني العقوبة على نفسه أعظم جرماً عليها من المعاقب له عليها.

قرابة بغير منفعة بلية عظيمة.

النعمة متعة.

كفاك أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك.

الحمية سوء.

ثوب الجهل الأنفة، والأنفة قوام السفه.

قل انفاً لم يعقب ذلاً.

العادة كمين لا يؤمن.

ازدحام الكلام مضلة للصواب.

عجلوا القرى قبل سوء الظن وإخاق السيئة.

أنجح ما فى هذا الإنسان قلبه وله سواد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن تملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب استبد بالغيظ، وإن استعد بالرضا نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمر استلبته العزة، وإن حدثت له النعمة أخذته العزة، وإن امتُحن بمصيبة فضحه الجزع، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة شغلته، وإن جهد به الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط فى الشبع كظته البطنة. فكل تقصير به مضر وكل إفراط له مفسد.

أفضل القول بديهة أمن وردّت مقدم خوف

أشدّ الناس غماً الذى يرى غيره فى الموضع الذى هو أولى.

ما أخذ الله لأحد طاقة إلا رفع الله عنه طاعته.

من العجيب أن لا ترضى عن من ابتغى رضاك وأعجب من ذلك أن يسخط عليك.

زئير الأسد يشبه صولته.

علامة العلم التعلم.

لا تعاروا حتى تروا، لا تفخروا حتى تفعلوا ولا تأنفوا حتى تُظلموا.

وجه الشفعاء براءة الساحة.

من لزم الصحة والاستقامة لزمته الغبطة والسلامة.

قصص الأولين مواعظ الآخرين.

البحث يوضح الحق كما يورى النار القدح.

ليس مع الحسد سرور ولا مع الحرص راحة ولا مع السخط غنا.

ما أنور الهدى.

ما أظلم العمى.

ما أكرم التقوى.

ما أبدع الهوى.

ما أتعب المنى.

ما أسرع البلا.

ما أجهل الصبا.

قال جعفر الصادق عجبت لمن ابتلى بأربع كيف يغفل عن أربع، لمن ابتلى بالصبر كيف يذهب عنه أن يقول: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [1] والله تعالى يقول: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ [2]، وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف يذهب عنه أن يقول: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] والله تعالى يقول: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4]، وعجبت لمن خاف كيف يذهب عنه أن يقول: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [5] والله تعالى يقول: ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٨٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾[1]، وعجبت لمن مُكر به أن يقول:﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2]والله تعالى يقول:﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾[3]، وعجبت لمن أنعم الله عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب عنه أن يقول:﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[4].كذا سنة الله تعالى فيمن صدق قلبه في النجاة إليه ولم يتوكل في مهماته إلا عليه.

اليمين مأثمة أو مندمة.

ألذ الموارد منجاة من تلف أو قدوم غايب بعد أن خاب الناس منه الركايب.

واسرّ المصادر ظفر على قنوط.

الطبيعة مخالفة للمروءة فاصبر لحق واجب عليك وإن خالف هواك.

بهاء المجلس الشريف بالرجل النافع النفيس راحة وروح.

العمل النافذ بالرجل المدبر كبهاء الياقوت واللؤلؤ في تيجان الملوك.

الجود أن تهضم الروح حظ الجسد والإسراف أن يهضم الجسد حظ الروح والعدل أن يعطى كل منهما حقه والشح أن يكف بحظوظهما عنهما.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٤.
(٢) سورة غافر، الآية ٤٤.
(٣) سورة غافر، الآية ٤٥.
(٤) سورة الكهف، الآية ٣٩.

عدو يخاف الله فيما يكره خير من صديق لا يخافه فيما يحب.

لا يرعك الباطل مما ترمى به ولكن احذر أن تصدع عليك بالحق فيشهد عليك وجهك وعيناك.

من يطل رشاؤه يكبر قبحه.

الراغب فقير بقدر رغبته.

الحق يعطى ويمنع.

تجاوز عن ذنوب الناس لتحتج عليهم واجتنب الذنوب لتقل حجتهم عليك.

الفرق ينسى الحجة.

حابي العلية فى كلامك وسوى بينهم وبين السفلة فى أحكامك.

موت فى عز خير الحياة فى ذل وعجز.

الأكفاء من كل نمط متباعدون.

ما ضاع امرؤ عرف قدر نفسه.

لن يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه.

خير الناس من تواضع عن رفعة وعفا عن قدرة.

الحاسد يظهر وداً فى كلامه وبغضاً فى أحكامه فاسمه الصديق ومعناه العدو.

الرياء يفسد العلانية والعجب يفسد عمل السريرة.

إذا كثرت القدرة قلت الشهوة.

من عرف قدره كفاك نفسه.

كفى بالظفر شفيعاً للمذنب إلى الحليم.

لسان الجاهل دليل حتفه.

لا ظفر مع بغى ولا صحة مع نهم ولا ثناء مع كبر ولا صداقة مع خبث.

من لم يعرف قدره فاكفه نفسك.

أحق ما رُدّ ما خالف شهادة الحق والعقل.

من العجب أن نطلب فى صحة كل علم ما ينفعنا ونكل العلم إلى الله تعالى من غير بحث عن صحته.

الفراغ الفاصل على الحمام مفسدة.

الحمية أصل العلتين.

الرغبة المثبتة تكون بعد انقضاء العمل.

قطع ظهرى وأفسد الدين رجلان جاهل ناسك وعالم فاجر، هذا يدعو الناس إلى جهله بنسكه وهذا ينفر الناس عن علمه.

لسان الجاهل دليل حتفه.

من قوى هواه ضعف حزمه.

من ظهر غيظه ضعف كيده.

كفى بالظلم طارد للنعمة وداعياً للنقمة.

من قبل صلتك باعك مروته.

الهدية تفقأ عين الحكيم.

عفو الرأى خير من استكراه الفكر.

ما استنبط الصواب بمثل المشاورة ولا أحصيت النعم بمثل المواساة.

من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ومن حمد الله فقد فخر.

ما اكتسب البغضاء بمثل الكبر.

من استغنى بالله فقد افتقر الناس إليه.

التقصير يحجبك عن الصواب.

الإفراط يقحمك فى الخطأ.

ثلاث خصال ما اجتمعن إلا فى كريم: حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملالة.

كفى مخبراً عما بقى ما مضى.

كفى عبراً لذوى الألباب ما جربوا.

التهاون بالمطلوب أول أسباب حرمانه.

الشبهة ظلمة.

لن يضيع صواب العقل حتى يضيع صواب العمل.

خير الأمور ما سر عاجله وحسنت عاقبته.

لا شرف مع سوء أدب ولا بر مع شح ولا اجتناب محرم مع حرص ولا محبة مع زهو.

بإجالة الفكر يستخرج الرأى المصيب.

وبحسن التأني تدرك المطالب.

وبالنعمة يكثر المتواصلون.

الفاحشة عار الأبد وعقوبة غد.

الشماتة تعقبها الندامة.

من سخر ابتلى.

قال الله تعالى: ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾[1].

إذا فقد المتفضلون هلك المتجملون.

رب صبابة غرست من لحظة وحرب جنيت من لفظة.

ما شاهد على غائب بأدل من طرف على قلب.

شر المال ما لا ينفق منه.

أفضل المال ما صين به العرض.

بالأفضال شرف الأقدار.

الذي يكون سبباً لفساد نفسه أذم ممن يفسده عدوه أو دهره.

لا تعدن وديعة مالاً.

الشهوة رق، الحريص كلب.

يعبر عن الإنسان اللسان وعن المودة العينان.

لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعلى من التقوى ولا شفيع أغنى من التوبة.

---

(١) سورة هود، الآية ٣٨.

أولى الناس بأمر من حافظ عليه.

الخير موضوع لمن أراده موفور لمن عمل به.

الرغبة مفتاح الطلب ومصلبة الخسرة.

الحرص داع إلى الحرمان.

التنفل بالحسنة تنفي السيئة.

المكافأة بالسيئة دخول فيها.

البغي سابق إلى الحين.

إصلاح الرعية أنفع من كثرة الجند.

حق المذموم التأنيب وحق المرحوم المعونة.

من الجهل والجفا إظهار الفرح عند المحزون.

المحزون يحقد على الفرح ويشكو للمكتئب.

من ظل السلامة تدب الآفات.

أعظم الناس قدراً من لم يجعل الدنيا لنفسه قدراً.

ما أحدث محدث بدعة إلا وترك لها سنّة.

عزايم الأمور خيارها ومحدثاتها شرارها.

الملك يكسب من إنفاقه والعامة ينفقون من كسبهم.

من أفنى عمره في جمع المال خوف العدم أسلم نفسه للعدم.

قال الشاعر:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي جمع الفقر

من لم يقدر على الفضايل فلتكن فضايله ترك الرذائل.

إن لم تكن ملحاً تصلح فلا تكن ذباباً يفسد.

استصلاح بعض العدو أفضل من هلاكه.

من سعادة المرء أن يطول عمره ويرى في عدوه ما يسره.

خير الكتب ما إذا أعاد قارئه النظر فيه زاد حسنه أو وقف على ضده.

أثقل الأحمال من اتسعت مروته وضاقت مقدرته.

استحي من الله بقدر قربه من عقلك وأطعه بقدر حاجتك إليه وخفه بقدر قدرته عليك واعصه بقدر صبرك على النار.

اعمل للدنيا بقدر مقامك فيها واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها.

الملك ينفق ليكسب والعمة تكسب لتنفق.

الطاعة بقدر الفاقة.

يفحش زوال النعم إذا زال معها التجمل.

أولى الأمور بك أوجبها عليك.

الدنيا العافية والشباب الصحة والسرور الأمن.

إذا أقبل الأمر شبّه وإذا أدبر صرح.

إذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية وإذا جار لم يملك منهم إلا الرياء والتصنع.

الصدقة من سعة وابدأ بمن تعول.

إذا ضربت النوافل بالفرائض تركت النوافل وقدمت الفرائض.

نذر الرجل قدر همته وصدقته على قدر مروته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته.

من أطاع الواشي ضيع الصديق.
من جعل لنفسه حظاً من حسن الظن روّح عن قلبه.
شر مالك ما لزمك أثم مكسبه وحرمت منفعة إنفاقه.
رب مغبوط بليلة قامت بواكيه في آخرها.
لا ترجو خير من لا يرجو خيرك ولا تأمن جانب من لا يأمن جانبك.
تارك الطلب ضجراً أرجى لعودته من تاركه جوراً.
ثمرات الشهوات المخازى.
الخصومة تمرض القلب.
أعم الأشياء نفعًا فقد الأشرار.
من استكفى الكفاة كفى الأعداء.
خير مالك ما أغناك وخير منه ما قواك.
صولة الكريم حلم.
ذنب الأسد خير من رأس الكلب.
بجبهة العين يفدى حافر الفرس.
من استبد برأيه خفت وطأته على أعدائه.
إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك.
من أمن الزمان خانه ومن تغرر عليه هانه.
كما يجب أن تكون المرآة أضوء من الناظر فيها فكذلك يجب أن يكون المؤدب أفضل ممن يؤدب.

من ترك العلم بما ينبغى عمل بما لا ينبغى.

ليس فى الشر أسوة ولا فى الخطأ قدوة.

لن تكون لله ناصحاً حتى تحب عدوك إذا أطاع الله فى عداوتك على عدواته وتنزع عما عاداك عليه، وتبغض وليك إذا عصى الله فى موالاتك وتنزع عما والاك عليه.

ولا تكن على الإساءة أقوى منك على الإحسان.

الشقى من جمع لغيره وضنين على نفسه بخيره.

شر أخلاق الكريم أن يمنع خيره، وخير أخلاق اللئيم أن يكف شره.

من كانت الآخرة رأس ماله كانت الدنيا ربحه ومن كانت الدنيا رأس ماله كانت الآخرة خسارته.

أفضل العلم وقوف الرجل عند علمه.

أفضل المال ما قضيت به الحقوق.

البدع فخاخ مخبوءة قد جعلت عليها ألفاظاً ظاهرة.

رجاء العامة أمنية على ضلالة ورجاء الخاصة يعين على الثقة.

القليل من المال كالكثير من غيره.

عطاء الملك زينة وسؤاله شرف.

إذا كذب السفير بطل التدبير.

أخبث الأزمنة زمان لا يثمر فيه الصواب.

لا تعطوا فى الفضول ما خفتم العجز عن الحقوق.

الآذان أسماع تؤدى والقلوب قوابل تعى.

من أحب أن يسمى داهية لم يظهر دهاؤه.

لا دليل أهدى من التوفيق.

الجلا بلا.

من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن.

الحفظ قيد العلم والدراسة إذكاء للفهم.

المقايسة إحياء للفطن.

استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتآلف والنصر بالتواصل لله والرحمة للخلق.

استقلال الكثير يعرض للتغيير.

ثلاثة أشياء يستدل بها على عقل أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه والرسول على عقل مرسله والهدية على عقل مهديها.

لم يحكم العقول حاكم كالعبر ولم يحكمها محكم كالتجربة.

من عاب سفلة فقد رفعه ومن عاب سيداً فقد وضع نفسه.

أحق الناس أن يؤمن على الدنيا أهل الآخرة.

صح من صحت سرايره وسقم من سقمت ظواهره.

بالكلام يعرف فضل العقل كما بالرسول يعرف قدر المرسل.

ملاك أمركم الدين وعصمتكم التقوى وزينتكم الأدب.

حصون أعراضكم الحلم.

إذا أعطيت ما لا ترضى فارض بما أعطيت.

كلما ازداد الخير كثرة كان الخارج أعظم خيراً.

بقدر السمو في الرفعة تكون وجبة الوقعة.

الإبقاء على العمل أشد من العمل.

من التوقى ترك الإفراط فى التوقى

فى التوقى توريث الحرمة.

الذمام سنة فى المروءة.

لا تمدحن امرأ بأكثر من قدره فتكون مهيناً لنفسك كذابًا على غيرك.

لا تفرح بسقطة غيرك فإنك لا تدرى متى يحدثها الزمان بك.

من الجفا الكلام فى الأمر الجسيم من غيره مشاورة.

أكثر الناس مخادع لنفسه فى أمر جسده عند الحمية وفى أمر مرؤته عند الشهوة وفى أمر دينه عند الشبهة.

المصائب بغتات العاقل.

العاقل المدبر أرجى من الأحمق المقبل.

أشرف الصنايع ما لم تكن مكافأة لماض ولا رجاء لباق.

إرض النظير ثم كلفه وانس الملهى ثم اسمع منه.

لم تكن غواية إلا وإليها سابق وعنها ناكص.

إحسانك إلى الحر يحرضه على المكافأة وإحسانك إلى الخسيس يبعثه على معاودة المسألة.

ليس يمتحن الأديب أن يكون فاعلاً للخير إنما يمتحن أن يكون تاركاً للشر.

من صنع خيراً فاضعفه له، وإلا فلا تعجز أن تكون مثله.

الأشرار يتتبعون مساوئ الناس ويغفلون عن محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع النغلة من الجسد.

الظرف فطنة مازجها عبارة مع حذر وتوق، فإذا خلت الفطنة من التوقي فصاحبها لا يستمتع به أهل المروءة، وإذا خلت الفطنة من العبارة وقارنتها ملاحة فصاحبها طيب الظرف، وإن كانت فطنة معها بعض الاسترسال للألفاظ ترفع عنها أهل الجلالة من المخلصين في باطن الدنيا والمترسمين في ظاهر الحال.

وسمعت القاضي أبا العباس الجرجاني بالبصرة يقول: أول من تكلم بهذه الكلمة عمر بن الخطاب وذلك أنه أتى بسارق فقال له: أسرقت؟ فقال: لا أقل لا، فقال عمر: إنك لظريف.

جهد البلاء الإقلال مع العيال.

ينبغي للعالم أن يتطامن للجاهل بقدر ما رفعه الله إليه.

العقل أفقر إلى الحكمة والأدب من الجسد على الطعام والشراب.

أعظم الناس غمًا من زالت نعمته وضاقت مقدرته.

قلة العيال أحد اليسارين.

معالجة الموجود خير من انتظار المفقود.

من عدم الحيا عند الفضيحة والصبر عند النصيحة سهلت عليه المعاصي كلها.

العالم مثل السراج من مر به اقتبس منه.

من تقدم بحسن النية نصره التوفيق.

لن تكون لله ناصحاً حتى تحب أن يكون له عدوك مطيعاً.

من آذى الناس بلا سلطان كان مصيره إلى الهوان.

مادحك بما ليس فيك مخاطباً لغيرك فجوابه وثوابه ساقطان عنك.

المكر والخديعة في النار.

الأحداث تأتي.

من على مأمنه يأتي الحذر.

المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمحفوظ للعدو.

من غضب على من لا يقدر على غمه عذب نفسه واشتد غيظه.

أطلب ما يعنيك وأترك ما لا يعنيك، فإن في ترك ما لا يعنيك درك ما يعنيك.

من أنكأ الأشياء لعدوك أن تريه أنك لا تعاديه.

كل آت قريب.

الاستغناء عن الشيء خير من الغناء فيه.

من خير خبر أن تسمع بالمطر.

لا فخر فيما يزول ولا غنى فيما يفنى.

شر الذنوب ما كان علة للذنوب.

أبلغ الرسل الكتب.

حاول الأمور بالنصفة وأنا زعيم لك بالظفر.

من أراد جمالاً لا تهدمه الأيام فليصحب المروة والصيانة فهما ذروة الشرف.

الموالاة فى الإسلام بمنزلة الحلف فى الجاهلية.

سب الجهال للحكماء تشريف لهم عند أهل الفضل.

الجاهل منسوب إلى فعله، وكما أن الحكيم يتألم بحديث الجاهل فالجاهل يتألم بسماع الحكمة.

أغنى الناس عن الحقد من عظم قدره وترفع عن المجاراة.

الكبير الهمة من الرجال من كان عتب الناصح عنده ألطف من ملق الكاشح.

إن كانت الحدود هى الحظوظ فما بال الحرص، وإن كانت الأمور ليست بدائمة فما بال السرور، وإن كانت الدار الدنيا غرارة فكيف الطمأنينة إليها.

وقال الشعبى رحمه الله: ما رأيت الله سبحانه أعطى عباده أجل من العلم.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خمس من لم تكن فيه فلا ترجه لشيء من أمر الدنيا والآخرة:

من لم يعرف بالوثيقة فى أرومته والدماثة فى خلقه والكرم فى طبعه والنبل فى نفسه والتجافى عند ربه.

وقال أبو عبد الله بن حمدون: كنت مع المتوكل لما خرج إلى دمشق فركب يوماً إلى رصافة هشام بن عبد الملك فنظر على قصورها ثم خرج فرأى ديراً هنالك قديماً حسن البناء بين مزارع وأنهار وأشجار فدخله، فبينما هو يطوف إذ أبصر برقعة قد ألصقت فى صدره فأمر بقلعها فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات:

أيا منزلاً بالدير أصبح خالياً ... تلاعب فيه شمأل ودبور

كأنك لم يسكنك بيض نواعم ... ولم يتبختر في فنائك حور

وأبناء أملاك عوابس سادة ... صغيرهم عند الأنام كبير

إذا لبسوا أدراعهم فعوابس ... وإن لبسوا تيجانهم فبدور

على أنهم يوم اللقاء ضراغم ... وأنهم يوم النوال بحور

ليالي هشام بالرصافة قاطن ... وفيك ابنه يا دير وهو أمير

إذا العيش غض والخلافة لدنة ... وأنت طريد والزمان غرير

وروضك مرتاد ونورك مزهر ... وعيش بني مروان فيك نضير

بكى فسقاك الغيث صوب سحابه ... عليك لها بعد الرواح بكور

تذكرت قومي فيكما فبكيتهم ... بشجو ومثلي بالبكاء جدير

فعزيت نفسي وهي نفس إذا جرى ... لها ذكر قومي أنة وزفير

لعلّ زمان جار يوماً عليهم ... لهم بالذي تهوى النفوس يدور

فيفرح محزون وينعم بائس ... ويطلق من ضيق الوثاق أسير

رويدك إن اليوم يتبعه غد ... وإن صروف الدائرات تدور

فلما رآها المتوكل ارتاع وتطير وقال: أعوذ بالله من شر أقداره ودعا صاحب الدير فسأله عمن كتبها فقال لا أعلم لي به، فانصرف.

فأما الكتب وصفاتها فتجل عن بلوغ الوصف ولقد أحسن ابن الجهم فى قوله:

سمير إذا جالسته كان مسلياً ... فؤادك فيما كان فيه من الوجد

يفيدك علماً أو يزيدك حكمة ... وغير حسود أو مصر على الحقد

ويحفظ ما استودعه غير غافل ... ولا خائن عهداً على قدم العهد

زمان ربيع فى الزمان بأسره ... يبيحك روضاً غير ذاو ولا جعد

تنور آدابًا بورد بدائع ... أخص وأولى بالنفوس من الورد

وأنشد بعض الأعاجم:

إذا ما خلا الناس فى دورهم ... بخمر سلاف وخود كعاب

وأنستهم لحساب الليالى ... صفاء الندامى وزهو السحاب

خلوت وصحبى كتب العلوم ... وبت عروسى بنت الكتاب

ودرس العلوم شراب العقول ... فدوروا على بذاك الشراب

وما يجمع المرء فى دهره ... سوى العلم يجمعه للتراب

ومن مليح ما ينشد فى الدفاتر:

إذا ما خلوت من المؤنسين ... جعلت المؤانس لى دفترى

فلم أخل من شاعر مؤنس ... ومن عالم صالح منذر

ومن حكم بين أثنايها ... فوائد للناظر المفكر

وإن ضـاق صـدرى بأسـراره وأودعـتـه الـسـر لم يظهـر

وإن صـرح الـشعر باسـم الحبيب فلـم أختـشيه ولم أحتـصر

وإن عـدت مـن ضـجر بالهجـا وسـب الخلـيقة لم أحـذر

ونادمـت فـيه كـريم المعـيب لـندمانه طـيب المخـبر

فلـست أرى مؤثـراً مـا حييت علـيه نـديماً علـى المحـشر

وأنشد ابن حزم رحمه الله لبعض الأدباء:

إن صـحبنا الملـوك تاهـوا علينـا واسـتخفوا جهـلاً بحـق الجلـيس

أو صـحبنا الـتجار عـدنا إلى الـبؤس وصـرنا إلى عـداد الفلـوس

فلـزمنا الـبيوت نـستعمل الحـبر ونمـلأ بـه وجـوه الطـروس

وقنعـنا بمـا رزقـنا فـصرنا أمـراء علـى الملـوك الـرؤوس

زاد ابن حزم عفا الله عنه فقال:

لـو تـركنا وذاك كـنا ظفـرنا مـن أمانيـنا بعلـق نفـيس

غـير إن الـزمان أعيـى بنـيه حـسدونا علـى حـياة الـنفوس

وأنشد بعض الشعراء رحمهم الله:

أنـست إلى التفـرد طـول عمـرى فمـا لى فـى الـبرية مـن أنـيس

جعلـت محادثـى ونـديم نفـسى وأنـسى دفـترى بـدل الجلـيس

قد استغنيت من فرس وبغل   إذا سافرت على نعل كبوس

ولى عرس جديد كل يوم   لطرح الهم فى أمر العروس

فبطنى سفرتى والخرج جسمى   وهميانى قمتى أبداً وكيسى

وبيتى حيث يدركنى مسائى   وأهلى كل ذى عقل نفيس

ولئن كان الناظمون قد وصفوا فجوّدوا وقالوا فأبلغوا فلقد قصروا وأجلّ ممدوح من استقصر فى مدحه المنتهى واستتر فى تفويضه المحتفل، وكيف لا والكتاب نعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل، وعاء ملىء علماً وظرف ملئ ظرفاً وإناء ملىء مزاحاً وجداً وبستان يحمل فى ردن وروضة نقلت فى حجر. هل سمعت بشجرة تؤتى أكلها كل ساعة باختلاف الألوان وطعوم متباينة، هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يذوى، ومن لك بجليس يعيد الشىء وخلافه والجنس وضده، ينطق عن الموتى ويترحم على الأحياء، إن غضبت عليه لم يغضب وإن عربدت عليه لم يجب، أكتم من الأرض وأنم من الريح وألهى من الهوى وأبدع من المنى وأمتع من الضحى، وأنطق من سحبان وائل وأغنى من ناقل، هل سمعت بمعلم واحد يتحلى بحلل كثيرة وجمع أوصافاً غزيرة عربى فارسى هندى سندى رومى يونانى، إن وعظ أسمع وإن ألهى أمتع وإن أبكى أدمع وإن ضرب أوجع، يفيدك ويستفيدك ويزيدك ويستزيدك، إن جد فبشرة وإن مزح فنزهة، قبر الأسرار وحرز الودائع، يفيدك علم الأولين ويخبرك عن كثير من أنباء

الآخرين، هل سمعت فى الأولين أو بلغك عن أحد من السابقين من جمع هذه الأوصاف مع قلة مؤنته وخفة محمله لا يرزؤك شيئاً من دنياك،نعم الذخر والعقدة والمستغل والحرفة، جليس لا يضرك ورفيق لا يملك يطيعك بالليل طاعته بالنهار ويطيعك فى السفر طاعته فى الحضر، إن أدمت النظر إليه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجوّد بنانك وفخم ألفاظك، إن ألفته خلّد على الأيام ذكرك وإن درسته رفع فى الخلق قدرك وإن حملته نوّه عندهم باسمك، يقعد العبيد فى مقاعد السادة ويجلس السوقة مجالس الملوك فأكرم به من صاحب وأعزز به من موافق، وقال الأول:

لنا جلساء لا يمل حديثهم ... ألباء مأمونون غيباً ومشهداً

يفيدوننا من علمهم علم من مضى ... ورأياً وتأديباً وعقلاً مسدداً

بلا فتنة يخشى ولا سوء عشرة ... ولا نتقى منهم لساناً ولا يداً

فإن قلت أموات فما أنت كاذب ... وإن قلت أحياء فلست مفندا

هذا ما أردنا أن نمليه من هذا الكتاب والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً آمين دائماً وأبداً إلى يوم الدين.

مطـابـع آمـــون

٤ ش الفيروز متفرع من إسماعيل أباظة

لاظوغلي - القاهرة

تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦